

وراحت تتلمظ شأن الفنان الذي يتذوق فنه سلفاً.
ولما جاءت كاتيا بالثوب، كانت ماري لا تزال جالسة دون حراك تتأمل تقاسيم
وجهها، فرأت ليز في المرأة أن عيني سلفتها ممتلئتان بالدموع، وأن رعدة خفيفة كانت
تهز شفثيها شأن من كان على وشك البكاء.

قالت الأنسة بورين: آه يا عزيزتي الأميرة، ابذلي مجهوداً صغيراً آخر.
أخذت ليز الثوب من يدي الوصيفة، واقتربت به من ماري، قالت: والآن، سوف نقوم
بتجربة بسيطة وفتانة معاً.
واختلط صوتها بصوتي الأنسة بورين وكاتيا الوصيفة اللتين شاطرناها الضحك،
فتعالت ضجة مرحة مؤنسة.

قالت ماري: كلاً، دعيني يا ليز.
كانت لهجتها شديدة الخطورة مشبعة بالألم، حتى إن زقزقة العصافير البهيجة
انقطعت على الفور، ولما نظر ثلاثتهن إلى تعبير تينك العينين الكبيرتين الجميلتين المليئتين
بالدموع والمقاصد، أدركن أن الإلحاح غير مُجدٍ، هذا إذا لم يكن إغراقاً في القسوة والتجني.
قالت ليز: أبدي إذن ترتيب شعرك.

ثم خاطبت الأنسة بورين بلهجة عتاب ولوم: لقد نبهتكَ من قبل إلى أن لماري وجهاً
لا يلائمه هذا النوع من «التسريحة» المرتفعة، نعم، إنها لا تلائم وجهها أبداً أبداً، أبديها
فديتك.

فأجابت ماري بصوت مخضل بالدموع: لا، بل اتركَنني، اتركَنني، سيان عندي ذلك.
واضطرت ليز والأنسة بورين إلى الاعتراف في سرهما أن ماري كانت — وهي على
تلك الزينة — بادية البشاعة، بل أكثر بشاعة من ذي قبل، لكن فات الوقت الذي يمكُنها
من تلافي الخطأ، نظرت إليهما تلك النظرة الكئيبة الحاملة، تلك النظرة التي كانتا تعرفانها
لدرجة أنها ما عادت تخيفهما — رغم أن ماري ما كانت تُشعر أحداً بالرهبة أو بالخوف
— والتي كانت مع ذلك تجعلهما في مثل هذه الحالة تنطويان على نفسيهما وتلتزمان
الصمت.

ظلت ماري وحيدة، لم تتبع نصيحة ليز، بل إنها لم تُلْقِ نظرةً واحدةً على وجهها في
المرآة، لبثت كالحة الوجه صامته مُطرقة الرأس متصلبة اليدين، وراحت تحلم في يقظتها،
أخذت تتصور زوجها المقبل شخصاً قوياً مسيطراً، ذا جاذبية غامضة معقدة تساعده
على حملها إلى عالمه هو، عالم سعيد مختلف كل الاختلاف عن عالمها، وتتصور طفلها

«هي» شبيهاً لذلك الذي شاهده أمس لدى ابنة مربيتها، كانت تراه مضمومًا إلى صدرها وتتصور زوجها ينظر إليهما بحنان، لكنها قالت تحدّث نفسها فجأة: «ولكن كلاً، إن هذا مستحيل، إنني شديدة البشاعة!»

علا صوت الوصيصة من وراء الباب تقول: لقد أعد الشاي يا سيدتي، وسيصل الأمير فوراً.

انزعجت ماري نفسها من أحلامها، ورؤعت لاستسلامها إلى مثل تلك التخيلات، وقبل أن تبارح غرفتها، عمدت إلى مصلاها حيث حدثت طويلاً في الوجه الأسود المائل في صورة كبيرة للمخلّص يضيئها قنديل، ويدها مضمومتان إلى صدرها، كان يعذبها شك مريع؛ ترى هل كانت مدعوّة إلى تذوّق مباحج الحب؛ الحب الأرضي المكث لرجل؟ كانت كلما فكّرت في الزواج تخيلت السعادة التي يشعر بها المرء في الأسرة، سعادة الأطفال والبيت، لكنها كانت في قرارة نفسها تشعر أنها منذورة لأشواق أرفع من مباحج الأرض، وكان ذلك الإحساس في نفسها شديد الوضوح والصخب، حتى إنها راحت تحاول إخفاءه عن عيون الآخرين بمثل القوة التي كانت تصرفها لمغالطة نفسها في هذا الصدد، تَمَتَّت: «رباه! كيف أستطيع إبعاد هذه الوسواس الشيطانية، خنق هذه الأفكار السيئة إلى الأبد، وإنجاز إرادتك المقدسة بسلام وهدوء؟» لم تكذّ تنتهي من هذا الابتهاال حتى شعرت في قرارة نفسها بالجواب العلوي السامي: «لا ترغب في شيء من أجل نفسك، لا تبحتي عن شيء ولا تُقلقي روحك، لا تحسدي إنساناً، ينبغي أن يظل مستقبلك مجهولاً منك كما هو الحال في آخرتك، ولكن نظمي حياتك بشكل تكونين معه مستعدة لكل شيء، فإذا شاء الله أن يبلوك بالتزامات الزواج، فأطيعي مشيئته على الفور دون تردد.»

وإزاء هذه الفكرة المطمئنة — وكذلك في أمل تحقّق حلمها المحرم المتعلّق بالحب الملتهب — رسمت ماري إشارة الصليب على صدرها وهي تزفر، وهبطت السُّلم دون أن تفكر في زينتها أو في شعرها، أو أن تهتم بالطريقة التي ستسلكها للظهور في البهو، بل إنها لم تعد تفكر كذلك في المواضيع التي قد تثار وتصبح موضوعاً للبحث؛ إذ ما معنى هذه التفاهات إذا قورنت بمشيئة الله القدير؛ ذلك الإله الذي لا يمكن أن تسقط شعرة عن رأس مخلوق إلا بإذنه؟!

الفصل الرابع

أحلام بورين

عندما دخلت ماري إلى البهو، كان الأمير بازيل وابنه يتحدثان إلى الأميرة الصغيرة والأنسة بورين. دخلت متمهلة بتثاقل تسير على كعبها بحكم العادة. فلما اقتربت، نهضت الأنسة بورين وكذلك الأمير وابنه، بينما راحت ليز تهتف مشيرة إليها: «ها هي ذي ماري!» شملتهم ماري بنظرة عامة لم تترك شيئاً إلا وأحاطت به، رأت أن الأمير بازيل عاد إلى الابتسام بعد أن حافظت قَسَمَاتُ وجهه فترة وجيزة على تعابير الخطورة المصطنعة التي أسدلها على وجهه، وأن ليز كانت تحاول أن تقرأ على وجهي الضيفين الأثر الذي أحدثه رؤيتهما لماري على تلك الصورة، وأن الأنسة بورين — وكانت نظرتها أكثر اتقاداً من أي وقت مضى — في أوج زينتها وبهائها، تَشْخَص بأبصارها محدقة في وجهه «هو»، أما «هو» فقد كان الشخص الوحيد الذي لم تره رغم وجوده، غير أنها حدست أنه طويل القامة جميل جداً شديد الجاذبية، وقد تقدّم نحوها ملاقيًا مستقبلاً.

انحنى الأمير بازيل بادئ ذي بدء فقبّل يدها، فلمست بشفتيها جبهته الجرداء، وأجابت على عبارات المجاملة التي بادرها بها بأنها لا زالت تحتفظ له في نفسها بذكرى ممتازة، ثم أتبع آناطول أباه، لكنها لم تحقق في وجهه، شعرت بيدٍ ناعمة قوية تمسك بيدها، وأن الجبين الذي تحسسته بشفتيها كان أبيض يعلوه شعر أشقر مضمخ بشكل معقول، فلما نظرت إليه أخيراً، أدهشها أن يكون على ذلك القدر من الجمال، كان مُحْنِيًا رأسه قليلاً، واضعاً إبهام يده اليمنى في إحدى عرى سترته، عاطفاً صدره وظهره معاً، مستوياً على إحدى ساقيه، يتأمل ماري بصمت بينما كانت أفكاره منصرفة عنها بشكل واضح، وعلى الرغم من أن آناطول لم يكن حاذقاً ولا متحدثاً لبقاً ولا مؤثراً، فإنه كان يتمتع بميزة ثمينة في المجتمع؛ هي بروده واعتداده اللذان ما كانا يزعزعهما حدث مهما كانت قوته، وقد درجت العادة على أن صمت الخجول أمام شخص يقابله للمرة الأولى

وقناعته بأنه غير لبق يضيفان على المقابلة بروداً ملحوظاً، يكون خلاله مُجهّداً نفسه في التنقيب عن الكلمات المناسبة والعبارات المقبولة. أما أنا، فأتول فكان على العكس؛ يصمت دون أي ارتباك ويتبخر أمام ماري متفحصاً زينتها بدعة، وكان واضحاً أنه يستطيع البقاء زمناً غير قصير على حاله تلك، وكان سلوكه يُشعر بأنه «إذا كان سكوتي يؤمك، فتحدثني على هোক، أما أنا، فإنني لست راغباً في الحديث.»

ثم إن أنا، أتول كان يتخذ حيال النساء موقف الترفع والتكبر الذي يوقظ فيهن الفضول والانفعال بل والحب. كانت مواقفه المترفعة تنطق بصراحة قائلة: «إنني أعرفك، إنني أعرفك، فما الفائدة من تهافتني على الترحيب والاهتمام بك؟ إنني لو فعلت ذلك لكنت شديدة السرور!» لقد كانت قسّمات وجهه وتصرفاته توحى بذلك حتى ولو لم يكن يفكر مثل هذا التفكير بالفعل، وهو الذي عُرف عنه أن التفكير ليس من مزيته وخصائصه! شعرتُ ماري بتلك المعاني والمقاصد التي تبرزها مظاهر ذلك الشاب وحركاته، ولكي تُشعره بأنها لا تريد احتكار صحبته، انخرطت في حديث مع الأمير العجوز، ولم يلبث ذلك الحديث أن أصبح عاماً قوياً متشعباً بفضل ثرثرة ليز التي كانت شفقتها ذات الزغب تكشف باستمرار عن أسنانها البيضاء. كانت تخاطب الأمير بازيل بتلك اللهجة المماجنة التي يستعملها الثرثارون الوداعون، والتي تقضي بإبهام المستمعين أن بينهما ذكريات مشتركة لا يعرفها سواهما، والتي تكون في حقيقتها وهماً وخيالاً مطلقين، استطاب الأمير بازيل تلك اللعبة فاشترك فيها، وراحت ليز تقص على الحاضرين نوادر من محض ابتكارها وتوهمهم أنها حقائق ثابتة، وأشرت في تلك النوادر الأمير الشاب أنا، أتول الذي لم تكن تعرفه من قبل إلا قليلاً، وتاهت الأنسة بورين في تلك الذكريات المبتكرة المختلفة، حتى إن ماري نفسها وجدت صعوبة في انتزاع نفسها من تيار تلك الذكريات السعيدة. قالت ليز بالفرنسية طبعاً: هنا على الأقل يا أميري العزيز يمكننا أن نلعب بوجودك كلياً، إن الأمر يختلف عما كان عليه الحال في حفلات أنيت حيث كنت تنسحب فراراً، هل تذكرها، تلك العزيزة أنيت؟

– لكنك لن تحدثني في السياسة كما كانت تفعل أنيت!

– وماذا عن ذكرياتنا حول مائدة الشاي؟

– آه! نعم.

وسألت أنا، أتول: لماذا لم أكن أراك عند أنيت؟ آه! نعم، إنني أعرف، إنني أعرف!

وغمرت بعينيها وأردفت: لقد حدثني أخوك هيبوليت عن أعمالك ومشاريعك.

وهددته بسبابتها وأعقبت: إنني أعرف حتى مغامراتك الباريسية.
فقال الأمير بازيل لولده وهو يستوقف ليز بإمساکها من ذراعها، وكأنه يجد صعوبة في منعها عن الفرار: غير أن ما لم يكن جديرًا بهيبوليت أن يحدثك به هو أنه كان يحوم حول أميرتنا الفاتنة التي طردته بلطف.

وأردف مخاطبًا ماري: آه، إنها لؤلؤة النساء يا أميرة!
أما الأنسة بوريين فإنها لم تفلت الفرصة التي أتاحت لها عندما سمعتهم يتحدثون عن باريس، فانبرت تسأل آناطول عما إذا كان قد غادر تلك المدينة منذ زمن طويل، وعن الشعور الذي خلّفته في نفسه، فأجابها آناطول بسرور جلي وهو ينظر إليها باسماً، وراح يحدثها عن وطنها، كان آناطول بمجرد أن وقع بصره على تلك الحسناء الفرنسية، قد حدّث نفسه بأنه لن يسأم النزول في ليسيا جوري ما دامت هذه فيها. كان يتفحصها مدققًا ويقول لنفسه: «إنها ليست رديئة، كلّاً، في الحقيقة إنها ليست رديئة هذه الأنسة المرافقة، إنني آمل أن تحتفظ ماري بها بعد زواجنا، إن هذه الصغيرة لطيفة للغاية.»

كان الأمير العجوز في تلك الأثناء يرتدي ثيابه في مخدعه دون تعجّل، كان يتساءل في شيء من السخط عن الخطة التي سيسلكها مع ضيفيه، لقد كان قدومهما يزعجه، كان يغمغم: «ما حاجتي إلى الأمير بازيل وفرخه؟ إنّ الأب دعني مأفون، أما الابن فلا شك أنه سرّ أبيه.» لكن سبب سخطه الحقيقي إنما يرجع إلى أن تلك الزيارة تثير مسألة معينة كان يخنقها كلما انطرحت على بساط فكره؛ مسألة كان دائماً يفكر فيها ويدرسها من كل وجوها؛ هل يقرر ذات يوم الافتراق عن ماري بإيجاد زوج لها؟ تلك كانت المسألة التي لم يفكر مرة في حلها بصراحة أو درّسها بإقدام، خصوصاً وأنه كان يعرف سلفاً أن العدل وحده سيملي عليه الجواب، وأن العدل في هذه المسألة يتناقض وعواطفه الشخصية، بل ويتنافى مع شروط وجوده وحياته. لقد كان رغم البرود الذي يتظاهر به، لا يطبق الحياة دون وجود ماري، راح يفكر: «ولم أزوجها؟ لسوف تكون تعيسة حتماً في حياتها الزوجية؛ هذه ليز التي تزوجت أندريه، وهو — ولا شك — أحسن الأزواج، ومع ذلك فإنها غير راضية عن مصيرها! ثم من ذا الذي سيتزوج ماري عن حبه لها؟ إنها بشعة وغير لبقة اجتماعياً، لسوف يتزوجونها من أجل علاقاتها وثروتها، فهل يتعذر فعلاً بقاؤها فتاة عزباء؟ أبداً، وإنها ستعيش بذلك في سعادة أعم وأوسع!» وبينما هو يضرب أخماساً بأسداس ويستكمل ارتداء ثيابه، شَعَرَ أن المسألة التي ظلت متفاوتة زمناً طويلاً لن تكون اليوم أكثر تعقيداً، وإذا كان الأمير بازيل قد اصطحب ابنه، فما ذلك إلا ليتقدم بطلب يد ماري، ولا بد من إعطائه جواباً نهائياً، سواءً أكان ذلك اليوم أو غداً. نعم، إن الاسم

والمركز مناسبان، ولكن ينبغي أن يعرف كذلك إذا كان الخطيب نفسه جديرًا بابنته؛ وهذا ما سيؤكد منه بعد حين.

وأنهى الأمير مناجاته بصوت مرتفع قائلاً: هذا ما سنراه الآن، نعم، هذا ما سنتأكد منه بعد حين.

دخل إلى البهو بخطاه السريعة الرشيقة، وشمل الحاضرين بنظرة سريعة أتاحت له ملاحظة زينة ليز المحدثّة والأشرطة التي كانت الأنسة بورين تثبتها في شعرها وعلى ثوبها، وابتساماتها التي كانت تتبادلها مع آناطول، وشعر ابنته في ذلك الوضع الكئيب وانطوائها وسط النقاش العام، فحدّث نفسه بغضب قائلاً: «لقد أظهرت نفسها كأغبي الحمقاوات! لقد فقدت كل حيائها، بينما الفتى لا يعيرها التفاتاً!»

أتجّه نحو الأمير بازيل وقال له: مرحباً، مرحباً، سرّنتني رؤيتك. فأجابه الأمير بازيل بتلك اللهجة الأنيسة الفكّه المتزنة المألوفة لديه: إن مرحلتين لا تُعتبران مشقة في سبيل لقاء صديق طيبٍ قديم، ها هو ذا أصغر أبنائي أقدمه بين يديك. تأمل الأمير نيكولا أندريئيتش وجّه آناطول وقال: لعمري إنه فتى! تعال وعانقني. وأدار له خده تسهلاً لمهمته.

عانق آناطول الأمير العجوز وهو يتأمله بفضول متحرر منتظراً أن يبادره بإحدى ثوراته الغريبة الشاذة التي حدّثه أبوه عنها.

جلس الأمير نيكولا في مكانه المألوف على الأريكة، وجذب إليه مقعداً دعا الأمير بازيل إلى الجلوس عليه، وراح يستفسر منه عن الأحداث الأخيرة، وكان يتظاهر بالإصغاء للأمير، بينما كانت أبصاره لا تنفك تلاحق ابنته وتراقبها.

قال مكرراً كلمات الأمير بازيل الأخيرة، وقد نهض فجأةً، واتجه نحو ماري مباشرة: إذن، فإن الأخبار أصبحت ترد الآن من بوتسدام؟

سألها: أمّن أجل الضيوف عملت هذه المهزلة؟ لعلك تريدين إظهار نفسك بمظهر الجميلة، ولما كنت قدّرت أن من المناسب ترجيل شعرك بطريقة جديدة إكراماً للضيوف، فإنني أسرك الأمر أمامهم بدلاً تعمدي إلى تبديل «تسريحتك» بعد الآن دون موافقتي وإذني.

فتدخّلت الأميرة الصغيرة وقد تضرع وجهها: إنها خطيئتي يا أبي. فأجاب العجوز: إنك حرة التصرف على هواك، أما هي، فلا حاجة بها لأن تبدو أكثر بشاعة مما هي عليه.

وعاد يجلس في مكانه دون أن يعير ابنته التفاتاً، وهي التي بلغ بها الخجل مبلغ البكاء.

قال الأمير بازيل: على العكس، إن هذه الطريقة تتلاءم تماماً مع الأميرة. لكن العجوز كان في تلك الأثناء ملتفتاً إلى آناطول، قال له: هيا يا فتاي، أو أيها الأمير الشاب — لست أدري على الضبط كيف ينادونك الآن — تعالَ إلى هنا، ينبغي أن نتحدث وأن نتعارف.

فجلس آناطول قرب الأمير باسمًا، وهو يفكر في سرّه: «ها إن المهزلة قد بدأت!» أردف الأمير العجوز: إذن يا عزيزي، لقد نشأتَ في الخارج كما قيل لي، أليس كذلك؟ طبعًا، إن أمرك يختلف عن أمرنا أنا وأبيك؛ لأننا لم نجد إلا واحدًا من جردان الكنيسة ليعلمنا الكتابة والقراءة!

ثم سأله وهو يحدق في وجهه عن قرب: قل لي، هل انتظمتَ الآن في عداد الحرس الراكب؟

فقال هذا وهو يكتب ضحكته بجهد بالغ: كلاً، بل إنني في عداد الجيش العامل. — جميل جدًّا، آه، حسن جدًّا يا صديقي! إنك تريد خدمة القيصر والوطن؟ إننا في حالة حرب، وإن شابًا مثلك يجب أن يساهم في الخدمة، إذن هل تذهب إلى الجبهة؟ — كلا يا أمير، إن فرقتي في الجبهة فعلاً، لكنني أشغل مركز ملحق ... وتوجه إلى أبيه بالسؤال قائلاً وهو يضحك: إنني ملحق بأي شيء يا أبي، يا للشيطان! فتضاحك الأمير العجوز وقال: هذا ما يسمَّى خدمة الوطن! بأي شيء أنا ملحق بحق الشيطان؟! ها، ها، ها!

وانفجر آناطول ضاحكًا بكل نفّسه، غير أن الأمير العجوز قطّب حاجبيه فجأةً وقال له: حسنًا، اذهب.

فمضى آناطول إلى السيدات والابتناسمة لا زالت على شفّتيه، بينما تحوّل الأمير العجوز إلى أبيه يقول: لقد أنشأتُهما نشأةً ممتازة في الخارج، أليس كذلك؟ — لقد عملتُ ما في وسعي. والحق يقال؛ إنّ الثقافة الأوروبية خيرٌ من ثقافتنا المحلية. — آه لا شك، كل جديد جميل. لا مجال للبحث في هذا، إنه فتى! هيا، لننتقل إلى مخدعي.

وأمسك بذراع الأمير بازيل وقاده إلى مكتبه، وما إن أصبحا وحيدين حتى أطلعه الزائر على رغبته وآماله.

قال الأمير العجوز غاضباً: أعتقد مثلاً أنني أعترض سبيلها، وأنني لا أستطيع الحياة بدونها؟ هراء يا عزيزي! خذها منذ الغد، فإنني لن أتصدى لها، بيد أنني أريد معرفة صهري على حقيقته، إنك تعرف مبادئ كل شيء في وضوح كامل! سوف أطرح عليها السؤال غداً بحضورك، فإذا وافقت، دعه يبقى هنا، نعم، دعه يبقى وقتاً ما هنا لأدرسه. وأعقب بصوت ثاقب يشبه ذلك الذي صرف به أناطول عن نفسه: لتتزوج، لتتزوج، لتتزوج، لست أبالي!

فقال الأمير بازيل بلهجة صريحة شأن الماكرين الذين يعرفون عقم الخداع مع مستمع نابِه ذكي: سأحدثك بكل صراحة، إن من السهل عليك اختراق نفوس الناس وسر أغوارهم، وإن أناطول لم يخترع البارود، لكنه فتى نبيل وطيب وابن ممتاز. - حسناً، حسناً، سوف نرى.

وكما هي العادة لدى النساء اللواتي حُرِمْنَ عشرة الرجال زمناً طويلاً، فإن نساء ليسيا جوري شعرن عند حلول أناطول بينهن، أن الحياة التي عشنها حتى ذلك اليوم لم تكن حياة بالمعنى الصحيح؛ لذلك فقد تضاعفت ملكات التفكير والشعور والملاحظة في أشخاصهن حتى بلغت عشرة أضعافها، وبدأت حياتهن التي كانت حتى ذلك الحين مدفونة في الظلام، منتعشة براقة تخطف الأبصار.

نسيت الأميرة ماري «تسريحتها» اللعينة ووجهها الهزيل. كان ذلك الشاب الجميل ذو الوجه الباش، الذي قد يصبح زوجاً لها، يحتكر كل انتباهها، كانت واثقة من أنه طيب باسل كريم وثابت العزم. وراحت ألوف الأحلام، أحلام الهناء الزوجية المقبلة التي كانت تطردها من مخيلتها عبثاً، تزدهر في خيالها.

قالت تهمس في سرها: «ألست شديدة الجمود حياله؟ إنني إذا كنت أبذل ما في وسعي لأسيطر على مشاعري، فما ذلك إلا لأنني أحس في قرارة نفسي بأنني أصبحت شديدة القرب منه، لكنه يجهل كل ما أفكر به، ولعله يعتقد أنه لم يعجبني.»

وراحت ماري تحاول الظهور بمظهر الأنيسة المرحبة بالقادم الجديد، بينما كان أناطول يفكر في نفسه: «يا للفتاة المسكينة! إنها شديدة البشاعة!»

أما الأنسة بوريين فقد نبتت في رأسها أفكار من لون آخر، لقد كانت هي الأخرى مثارة أقصى الإثارة بمقدم هذا الفتى الجميل، كانت تنتظر منذ وقت طويل أن يتقدم منها أمير روسي، يشعر للوهلة الأولى بتفوقها على لداتها الروسيات البشعات الغبيطات اللواتي لا يُجَدن ارتداء ثيابهن وإظهار فتنتهن، فيقع صريع غرامها للنظرة الأولى. وها إن ذلك

الأمير الفتان قد جاء في تلك اللحظة. كانت تعرف أن فتاة مثلها، محرومة رغم جمالها من أي مركز ممتاز في المجتمع، محرومة من الأقارب والأصدقاء حتى من الوطن، لا يمكن أن تقبل البقاء أبداً حيث هي؛ تكرس حياتها للأمير نيكولا أندريئيتش، وأن تظل إلى الأبد رفيقة الأميرة ماري ومقرئتها، وكانت الأنسة بوريين شديدة التعلق بأقصوصة حفظتها عن عمتها، كانت قد حاكت لها نهاية من محض ابتكارها وخيالها. كانت قصة فتاة جميلة أغراها رجل، فاستسلمت له دون أن يجمعهما زواج رسمي، وكانت الأنسة بوريين تذرف الدمع السخي كلما فكرت في خيالها أنها ستروي هذه القصة بالذات للفارس الذي سيغريها في المستقبل وينالها. أما الآن فإن ذلك الفارس لم يعد خيلاً، بل «إنه» موجود بالفعل أمامها، إنه أمير روسي عريق، ولسوف يختطفها وينالها وينتهي الأمر أخيراً بالزواج، تلك كانت خطوط المغامرة التي كانت تبدو في الأفق أمام ناظرَي الأنسة بوريين، التي كانت تتحدث مع آناطول عن باريس، لقد انقلبت القصة الخيالية إلى حقيقة بدأت خيوطها تبزغ عند الأفق، لم تكن تخضع في نفسها لأي حسابان، وهي التي لم تفكر قط فيما كان يجب عليها صنعه، لكنها كانت قد رتبت أقصوستها منذ زمن بعيد، حتى إن كل التفاصيل بدأت تجتمع تلقائياً في تلك اللحظة وبشكل طبيعي تماماً، وراحت خيوطها تلتف حول آناطول، ذلك الفتى، فتى أحلامها الذي طالما تاقَت إليه، والذي كانت تُبرز أمامه كل فتنتها وروعها.

وكانت ليز، كالحصان المدرب الذي يقفز عند سماعه البوق يقرع بالنداء، متحفزة للاندفاع في سباق الرشاقة، متناسية حالتها الصحية، متجاهلة ما قد يترتب على ذلك، خصوصاً وأنها ما كانت تغذي أية فكرة أو تهدف إلى أية غاية من وراء ذلك التهافت، اللهم إلا تلك الرغبة البريئة الساذجة التي تدفعها إلى الظهور بطيش وتهور.

وكان آناطول — وهو الذي درج في حضرة النساء على اتخاذ مظهر الإنسان الذي أنهكته ملاحقاتهن وتعلقهن — يشعر بلذة فائقة وهو يرى نفسه محور النقاب كل نساء البيت ومدار اهتمامهن، أضف إلى ذلك أنه لم يلبث حتى شعر نحو بوريين الجميلة المثيرة برغبة من تلك الرغبات الهوجاء الملحة التي كانت تستحوذ أحياناً على كيانه، وتقسره على التصرف تصرفاً طائشاً، وارتكاب أقسى الخطيئات وأكثرها تهوراً.

انتقل الضيوف وصحبهم إلى البهو الصغير بعد تناول الشاي، وهناك طُلب إلى ماري أن تعزف على الأرغن، واتفأ آناطول بالقرب منها على مرفقيه بجانب الأنسة بوريين، وراح يصوب إلى وجهها نظرات وادعة بسامة، وكانت ماري تشعر بارتباك مصدره السرور

الذي تحس به والقلق من إحساسها المرهف بتلك النظرة المسلّطة عليها، وكانت القطعة الموسيقية المفضلة عندها التي كانت تعزفها قد حَمَلَتْها إلى عالم سري شاعري، ازداد بهاؤه التماعاً وفتنة بتلك النظرة المغضبة عليها، والحقيقة أنّ تلك النظرة — رغم ما كان يبدو عليها من أنها موجّهة إليها — لم تكن متوقفة عند ماري، بل كانت تُراقب بدقة حركات قَدَم الأُنسَة بوريين الصغيرة التي تعمّد آناطول الاحتكاك بها تحت المعزف، وكانت الأُنسَة بوريين تنظر بدورها إلى ماري، غير أن عينيها الجميلتين كانتا تحملان مسحة واضحة من السرور الكئيب، وأملاً في ألاّ تراها ماري وهي في وضعها ذاك مع آناطول. كانت الأميرة تفكر في سرها: «كم تحبني بوريين! كم أنا سعيدة الآن! يا للهنا الذي ينتظرني في حياتي الزوجية المقبلة مع صديقة كهذه وزوج كهذا! ولكن هل سيصبح زوجي حقيقة؟» كانت تشعر بعيون آناطول وهي تتفحصها، لكنها ما كانت تجرؤ على اختلاس نظرة واحدة إليه.

ولما حان الوقت للافتراق بعد العشاء، قبّل آناطول يد ماري، وبُوغِثَتْ هذه من جرّأته فنظرت إلى وجهه الجميل القريب منها بعينيها الضعيفتين نظرة كلها تساؤل، وببساطة مفاجئة كان لها الأثر في تخفيف حدة تلك الحركة النابية، همّ آناطول بتقبيل يد الأُنسَة بوريين أيضاً، فتضرج وجهها خجلاً وراحت تستشير ماري بنظرة ذاهلة. حدّثت ماري نفسها: «يا للركة المتناهية! هل تعتقد أميلي — وهو الاسم الأول للأُنسَة بوريين — أنني أغار منها أو أنني لا أقدر حنانها وإخلاصها حق قدرهما؟» واقتربت منها فعانقتها بحرارة لتزيل شكوكها.

واقترب آناطول من الأميرة الصغيرة، فهتفت هذه نافرة وهي تلوّح بإصبعها مهددة: كلا، كلا، كلا! لن أعطيك يدي لتقبّلها قبل أن يكتب لي أبوك مؤكداً أنك أصبحت تسلك سلوكاً حسناً، أما الآن فلا. وأفلتت خارجة.

الفصل الخامس

جواب ماري

نام آنا تول وحده نومًا هائنًا تلك الليلة، أما الآخرون، فقد قضوا جميعهم ليلةً مضطربةً قلقة.

كانت ماري لا تفتأ تتساءل: «هل سيصبح زوجي، هذا المجهول الذي يبدو لي شديد الطيبة، رائع الجمال؟» ويستولي عليها جَزَع مفاجئ، وهي التي ما كانت تشعر بالخوف من قَبْل، ما كانت تجرؤ على النظر إلى زاوية حبرتها، كان يُخيل إليها أن بعضهم كامن هناك في الزاوية المعتمة وراء الحاجز، وأن ذلك المختبئ كان الشيطانَ المتقمص في جسد رجل أبيض الجبهة أسود الحاجبين قرمزي الشفتين، فقرعت الجرس مستدعية وصيفتها، وطلبت إليها أن تنام معها.

وظلت الأنسة بوريين فترة طويلة تتنزه في حديقة النباتات الشتوية منتظرةً عبثًا قدومَ فارسٍ ما، فكانت تبتسم تارةً للقادم الموهوم، وأخرى يأخذها التحنان حتى تطفر دموعها من عينيها، وتتصور اللوم العنيف الذي ستعرض له مثلما تعرضت فتاة أقصوصتها المسحورة بفتنة فارسها الجذاب.

أما الأميرة الصغيرة، فقد وجدت سريرها غير منسق كما يجب، فعنفت خادمتها، لم تكن تستطيع النوم على جنبها ولا على صدرها، وكانت كل وضعية أو استلقاء تُسبب له ألمًا وشكوى، كان حملها يبهظها ويربكها، ويزيد في إزعاجها ما أثاره مُقدم آنا تول في تلك الليلة من ذكريات عهد كانت فيه بعيدة عن مشاكل الحمل، تتذوق المتعة وهي هيفاء القد متأودة العود منشرحة الصدر، غرقت في أريكة لينة وهي في جلبابها وقلنسوة النوم على رأسها، وراحت تنظر إلى وصيفتها كاتيا، التي كانت تسوّي وتقلب الفراش الكبير الثقيل المحشو بالريش للمرة الثالثة، وهي مشعثة الشعر، يثقل النوم في أجفانها.

كررت احتجاجها بصوت متهدج كالطفل الذي يهْمُ بالبكاء: لقد قلت لك إنه مليء بالأخايد والنقوءات، إنني في أشد الحاجة إلى النوم، وأؤكد أنه لو كان الأمر مقتصرًا عليّ وحدي ...

أمّا الأمير العجوز فقد ظل ساهراً وقتاً طويلاً من الليل خلافاً لمألوف عاداته. وكان تيفون الذي ينام بعين واحدة ويسهر بالأخرى، يسمع وقع خطوات سيده الغاضبة، وتنهداته الحارة العميقة. كان الأمير يعتقد أنه أهين في شخص ابنته. وكانت تلك أشدّ الإهانات وقعاً على نفسه؛ لأنها لم تكن موجّهة إليه مباشرة، بل كانت تستهدف شخصاً يحبه أكثر من حبه لنفسه، وعلى الرغم من أنه دأب يكرر في سرّه أنه سيجد لهذه المسألة حلاً مرضياً بالتفكير العميق فيها، فإن انفعاله كان في تزايد مستمر.

كان يغمغم قائلاً: «لا يكاد أول طالب زواج يظهر على الباب، حتى تتناسى الأنسة الفاضلة أباهما وكل ما تبقي، فيضيع رشادها، وتهرع إلى المرأة لتتبرج وترتمي متهاكة! آه، إنها سعيدة بتركها أباهما! لقد كانت تعرف أنني لن أغفل عن رؤيته؛ ذلك الغبي الذي لم يرفع أنظاره عن بوريين! هذه واحدة ينبغي طردها على الفور! كيف لم تلاحظ ماري تصرفهما؟! كان عليها أن تخجل مني إذا كانت لا تخجل من نفسها، ينبغي أن أطلعها على أنّ هذا المخايل المتصنّع لا يفكر فيها مطلقاً، بل يفكر في بوريين. ولما كانت لا تملك شيئاً من الاعتدال والكرامة، فإن من واجبي أن أدلها على ما تعمل وأن أفتّح عينيها ...»

كان الأمير العجوز يدرك تماماً أنه إذا أثبت لابنته أن اهتمام أناتول كان منصباً على الأنسة بوريين وحدها، فإنه بذلك يدمي كرامتها، وبذلك ينجح في مبتغاه، فترفض الابتعاد عنه. فلما بلغ من مناقشته هذا المبلغ، قرع الجرس مستدعيًا تيخون الذي راح يُعد له ثياب النوم.

وبينما كان تيخون يحجب جسده الأعرج النحيل ذا الصدر المغطى بالشعر الأشهب، كان الأمير يحدث نفسه: «ما كنت في حاجة إلى زيارتهما! لقد جاءا يقلبان حياتي كما لو كنت مستغنياً عنها!»

صرخ ورأسه لا زال محجوباً بالقميص الذي لم يتخلص منه بعد: ليذهبوا إلى جهنم وكل الشياطين!

كان يحدث أحياناً أن يعبر الأمير عن آرائه بصوت مرتفع، وكان تيخون يعرف عادات سيده؛ لذلك فقد جابه نظرتة المستفسرة الغضبي، التي ظهرت خلال فتحة القميص بوجه مشرق خلي.

سأل الأمير: هل ناموا؟

كان تихون خادماً ممتازاً، وكان يفهم مرامي سيده من كلماته الأولى؛ لذلك فقد أدرك على الفور أنه يعني بذلك السؤال الأمير بازيل وولده، فقال: نعم يا صاحب السعادة، وقد أطفئوا الأنوار في حجراتهم.

غمغم الأمير مزمجرًا: لكأنني كنت في حاجة إلى أمثالهم!

ثم انتعل خفّه، ولبس معطفه المنزلي، ومضى يستلقي على الأريكة التي كانت تقوم عنده مقام السرير.

وعلى الرغم من أن آنا تول والآنسة بوريين لم يتبادلا كلمة واحدة حول شعورهما، فقد فهم كلاهما أن لديهما كثيرًا مما يؤدان التحدث به في جلسة هادئة لا ثالث فيها. لقد أدرك كلاهما خطوط الرواية التي يفكر فيها الآخر، أو على الأقل الجزء الأول منها؛ الإغراء والاستسلام؛ لذلك فإن الصباح التالي ما كاد يكتحل طرفه بالضياء حتى راح كلُّ منهما يبحث عن الآخر ليختلي به، ولما كانت ماري تذهب عادةً في ساعة معينة كل صباح لتحبيي أباها تحية الصباح، فقد أتيح لبوريين أن تقابل آنا تول في الحديقة الشتوية.

كانت ماري ترتعد ذلك الصباح لدى ولوجها باب غرفة أبيها أكثر من عاداتها، كانت تعتقد أن كلَّ مَنْ حولها أصبحوا يعرفون ليس أن مصيرها على وشك التقرير فحسب، بل كذلك أفكارها الشخصية وأحلامها المكتومة. بدا وجه تيفون لعينيها يعكس تلك الأحاسيس بكل صراحة، وكذلك خُيل إليها أن خادم الأمير بازيل، الذي قابلته حاملًا إناءً ممتلئًا بالماء الحار ذاهبًا به إلى غرفة سيده، مطلعًا على كل شيء بدليل التحية العميقة التي ابتدرها به لما مر بقربها في سبيله.

استقبل الأمير العجوز ابنته بترحاب وبشاشة تنذر — كما عرفت ماري لطول خبرتها — بأسوأ النتائج، كان وجهه منطبعًا بمثل التعابير التي كانت تقرؤها عليه إبان دروس الرياضيات، عندما كان يثيره عدم استيعابها للشروح التي كان يفسر بها الدرس اليومي، كان يُطبق قبضته، وينهض من مكانه مبتعدًا عنها، ويكرر الكلمة نفسها مرات عديدة بصوت أجوف جامد.

هاجم الموضوع فورًا باستعماله كلمة «أنتم» بدلًا من «أنت»، قال بصوت هادئ والابتسامة المغتصبة تداعب شفثيه: لقد تقدّم بعضهم بعرض يتعلق «بكم»، لا شك «أنكم» عرفتم أن عينيّ الجميلتين لا وزن لهما في زيارة الأمير بازيل وقاصره (والله وحده يعرف السبب الذي من أجله وصف آنا تول بكلمة قاصر!) وإنّ فقد تقدّموا إليّ

بعرض يتعلق «بكم» كما قلت، وبما «أنكم» تعرفون مبادئ الشخصية ومثلي، فقد عدت بالموضوع إلى «قراركم».

تمتت ماري وهي تمتع تارةً، ويتضرع وجهها تارةً أخرى: كيف يجب أن أفهم قولك يا أبي؟

فهتف الأمير مستنكرًا: كيف تفهمين؟! إن الأمير بازيل يجدك مناسبة لتكوني كنة، ويتقدم إليك بالعرض نيابة عن قاصره، هذا ما يجب أن تفهميه! كيف تفهمين؟! ولكن عليك أنت إعطاء الجواب.

فعدت ماري تتمتم: لست أدري يا أبي كيف تنظر ...

– كيف أنظر؟! إن الأمير غير متعلق بي! لا تهتمي بشأني، لست أنا الذي سأزوج، لكن «أنتم»، ماذا «تفكرون»؟ هذا ما أريد معرفته.

فهمت ماري أن العرض لم يرق لأبيها، لكنها أدركت كذلك أن مصيرها كله متوقف على هذه الدقيقة من الزمن، أطرقت برأسها لتتحاشى نظرة أبيها المسيطرة؛ تلك النظرة التي كانت تخنق في نفسها كل أبواب التفكير، فلا تترك لها إلا الخضوع المطلق، وقالت: إنني لا أرغب إلا في شيء واحد: تنفيذ رغبتك، وبما أنك تريد معرفة رأيي حول هذا الموضوع ...

لم تجد فرصة لإتمام حديثها؛ لأن الأمير قاطعها قائلًا: حسنًا، لسوف يأخذك أنت وبائنك والآنسة بوريين «على البيعة»، إنها هي التي ستكون زوجته وليس أنت.

لكنه توقف عندما رأى ماري خافضة الرأس على وشك البكاء، وقد زعزعت تلك الكلمات كيانه، قال مستدرجًا: لا تراعي، لقد كنت أمزح، كنت أمزح، إنك تعرفين مبدئي؛ على الفتاة أن تنتقي شريكها؛ وعلى ذلك فإنني أعطيك ملء الحرية، تذكري فقط أن سعادة حياتك كلها تتوقف على قرارك، ولا تجعلني مني حجة تقوم عليها اعتباراتك.

– لكن في الحقيقة لست أدري يا أبي ...

– إنني لا علاقة لي بهذا الأمر، أما هو فقد أمر أن يتزوجك، وإنه لفاعل، وإن لم يكن أنت فإنه لا بد وأن يتزوج أول من تقدم له، أما أنت، فإنك حرة في الانتقاء، اذهبي إلى غرفتك، وفكري في الأمر مليًا، ثم عودي بعد ساعة، وسوف تتحدثين أمامه إما سلبيًا وإما إيجابيًا، إنني أعرف أنك ستركعين مصلية فور اعتكافك، فليكن، صلي ولكن فكري كذلك، هيا اذهبي الآن.

واستمرَّ يصيح وراءها: نعم أو لا، نعم أو لا!

بينما كانت تغادر أباها، وهي تترنح في مشيتها، وكأنها تائهة في ضباب. كان مصيرها قد تقرر، وكان ذلك القرار على خير ما يرام؛ لأنها كانت تملك ناصيته، غير أنَّ تلك الملاحظة العابرة الخشنة التي أيداها أبوها حول مسألة الأنسة بورين وعلاقتها ما فتئت تشغل بالها. عَبَرَتِ الحديقة الشتوية على خط مستقيم دون أن ترى أو تسمع شيئاً، لكنها فجأةً سمعتْ همسات الأنسة بورين المألوفة على سمعها، فانتشلتها من شرودها. رفعت أبصارها فَرَأَتْ على بُعْدِ خطوتين منها الأمير آناطول ضاماً الفرنسية بين ذراعيه، يهمس في أذنها كلاماً، ولماً وقعت عيناه على ماري، اكتسى وجهه الجميل بطابع الذهول الشديد وكأنه كان يقول: «ماذا؟ ماذا يريدون مني؟ انتظري لحظة.» لم يُفَلِت بورين لفوره، خصوصاً وأن هذه لم تكن قد رأتها بعد، أخذت ماري تتأملها بصمت دون أن تتقبل ما ترى، أو أن تفهم ما يُراد منه، وفجأةً أطلقت الفرنسية صرخة قصيرة وأفلتت هاربة، أما آناطول فقد استعاد ابتسامته، وانحنى أمامها وكأنه يدعوها إلى مشاطرته الابتسام والضحك من هذه المناسبة الفريدة، ثم هَزَّ كتفيه، ومضى إلى الباب المؤدي إلى الجناح الذي نزل فيه مع أبيه.

وانقضت ساعة، جاء تيون بعدها يعلن للأميرة ماري أن أباها ينتظرها وبصحبه الأمير بازيل سيرجيتش، وكانت هذه جالسة على أريكة تضم بين ذراعيها الأنسة بورين، وتمر بيدها على شعرها بعطف وحنان، كانت عيناها الجميلتان على هدوءهما وإشعاعهما السابقين، وكانت تحرق في وجه الأنسة بورين؛ ذلك الوجه الجميل الذي كان مبللاً بالدموع، كانت تنظر إلى الفرنسية ببشاشة وعطف حقيقيين، وكانت بورين تقول: كلاً يا أميرة، لقد هلكُ إلى الأبد، وفقدتُ مكاني في قلبك النبيل! فتجيبها ماري: ولماذا؟ إنني أحبك أكثر من أي وقتٍ مضى، وسأسعى بكل ما أوتيتُ من قوة في سبيل سعادتك.

– لكنك تحتقريني، أنت الطاهرة النَّقِيَّة، لا يمكنك أن تفهمي هذه الخطيئة الغريزية؛ خطيئة الرغبة! أه! إنه خيالي وأقصوصتي.

فأجابتها الأميرة بابتسامة حزينة: بل إنني أفهم كل شيء، اطمئني يا صديقتي. ثم أعقبت وهي تنهض من مكانها؛ ولكن يجب أن ألحق بأبي.

كان الأمير بازيل جالساً على مقعده، وقد لفَّ ساقاً على ساق، وأمسك بعلبة سعوطه في يده وعلى وجهه آيات الهياج والانفعال، وكانت الابتسامة الحانية المطلقة على شفثيه عند دخول ماري تبدو وكأنها استخفاف بذلك الانفعال والاضطراب. بادَر إلى الهجوم، فقال وهو يستقبلها ناهضاً، ويمسك بيديها الاثنتين: أه أيتها الطيبة، أيتها الطيبة!

ثم أطلق زفرة وأردف: إن مصير وَلَدِي بين يديك، فقرَّرِي يا ماري، أيتها الطيبة، أيتها العزيزة الرقيقة التي أحببتك دائماً كابنتي.

وبينما هو يفسح لها الطريق، ظهرت دمعَةٌ حقيقيَّةٌ في زاوية عينه بين الجفن والأهداب.

هتف الأمير العجوز بعد أن أخذ نفساً عميقاً: إن الأمير باسم قاصره لا بل باسم ابنه يطلب يدك للزواج، فهل تريدين أن تصبحي زوجة أناطول كوراجين؟ أجيبني بنعم أو لا، قولي نعم، أو قولي لا، وإنني أحتفظ فقط بحقي في إبداء رأيي بعد ذلك. رأيي فقط ولا ... ولا شيء سواه.

وكرر هذه الجملة حينما لمس أمارات التوسل التي انطبعت على وجه الأمير بازيل وأردف: حسناً، ما هو رأيك؟ نعم أو لا؟

فقالت ماري بثبات، وهي تنظر بشدة في عيني الأمير بازيل، ثم تنقلَّ بصرها إلى وجه أبيها: إنَّ رغبتِي يا أبي هي ألا أفارقك أبداً، ألا أفصل حياتي عن حياتك، إنني لا أريد أن أتزوج.

فغمغم الأب حانقاً وقد اكفهر وجهه: يا للغباء، يا للغباء! سخافات، سخافات! لكنه جذب ابنته نحوه، ولامَسَ وَجَنَّتَهَا بوجنته دون أن يقبلها، وضغط على يدها بشدة، حتى إنَّ ماري لم تتمالك أن أطلقت صرخة خافتة أشفعتها بحركة دالة على شدة الألم.

أما الأمير بازيل فقد نهض واقفاً وقال: يا عزيزي، أستطيع القول إنني لن أنسى هذه اللحظة أبداً، ولكن ألا تعطين مجالاً للأمل في أن قلبك شديد الطيبة شديد الكرم قد يعيد النظر في قراره؟ قولي: يجوز. إن المستقبل كبير فسيح، قولي: يجوز.

— كلاً يا أميري، لقد تحدثت بكل صراحة، وليس لديَّ ما أضيفه على ما قلتُ، إنني أشكرك للشرف الذي أسبغته عليَّ، لن أكون زوج ابنتك أبداً.

وعندئذٍ قال الأمير العجوز: حسناً يا عزيزي بازيل، لقد انتهينا من هذا، سرَّني أن رأيتك بعد طول فراق. سرَّني ... وأنتِ أيتها الأميرة يمكنك الانسحاب.

وعانقَ الأمير بازيل للمرة الثانية وأردف: سرَّني أن شاهدتُك يا عزيزي.

كانت ماري تُحدِّث نفسها بقولها: «إن مهمتي في الحياة تختلف عن كل هذه الأمور، إنها تنحصر في التضحية في سبيل الحياة الآخرة، ولسوف أمكِّن أميلي المسكينة من سعادتها مهما غلا الثمن، إنها تحبه بشغف، وهي آسفة شديدة الندم على زلَّتها، سأعمل

كل ما في وسعي كي يتزوجها، إنه إذا لم يكن غنياً، فإنني سأقدم له بائنة، سوف أبتهل إلى أبي، وأتوسل إلى أخي أندريه، سأكون شديدة السعادة عندما تصبح زوجته! إنها غريبة مسكينة لا أقرباء لها ولا سند. آه! رباه، هل كان ينبغي أن تتعلق به إلى هذا الحد حتى تنسى نفسها، وتغفل عن شأنها، فتستسلم له! لعلني كنت أنصرف على غرارها! إنها لا تُلَام.»

الفصل السادس

رسالة نيكولا

مضى زمن طويل على آل روستوف، لم يتلقوا خلاله شيئاً من أخبار نيكولا، وعندما انتصف الشتاء، سُلم للكونت رسالة، كان العنوان مخطوطاً بخط ولده، حركت لك الرسالة عواطف الكونت وأثارتها حتى إنه جرى على أطراف قدميه محاذراً تنبيه أحد إليه، وأغلق على نفسه باب مكتبه ليختلي برسالة ابنه، ويكتم الخبر عن الآخرين، وكانت أنا ميخائيلوفنا — رغم تحسُّن أحوالها وانتعاش مواردها — لا تزال تقيم لدى آل روستوف، وكان من عاداتها الإحاطة بكل ما يدور حولها. وهكذا فإنها لم تلبث أن اكتشفت الأمر، فتسللت بخطى حذرة إلى مخدع الكونت، وهناك وجدته يضحك وينتحب والرسالة في يده. سألته بلهجة فيها قلق واستفسار، وبلهفة تتقن إبرازها كلما أرادت المساهمة في الاطلاع على موقف معين: ماذا يا صديقي الطيب؟

فتضاعفَ نحيب الكونت، وتمتم خلال دموعه: رسالة ... من صغيري نيكولا ... لقد جُرح يا عزيزتي ... نعم، نعم، لقد جُرح صغيري العزيز ... ولقد بشَّروه برتبة ضابط ... حمداً لله! ... كيف أنقل هذا الخبر ... إلى عزيزتي الكونتيس الصغيرة؟

جلستُ أنا ميخائيلوفنا قرب الكونت، وراحت تمسح عينيه بمنديلها، وتجفف الورقة التي تساقطت عليها بضع عبارات، وأخيراً تمسح دموعها هي الأخرى، ثم قرأت الرسالة، فطمأنت الكونت وقرَّرت أن تهَيئ الكونتيس لتلقِّي النبا قبل موعد الطعام معلنةً أنها ستنهيهِ إليها بعون الله ومشيئته بعد تناول الشاي.

ظلتُ أنا ميخائيلوفنا نتحدث طيلة الوقت الذي استغرقه الطعام عن الأنباء والإشاعات المتناقلة على الألسن المتعلقة بسير القتال، وعلى الرغم من إلمامها التام بالوقت الذي تلقت فيه الأسرة آخر أنباء نيكولا، فإنها عادت تسأل عن الوقت ملمحة إلى أنه لا يُستبعد أن يصل منه كتاب في ذلك اليوم بالذات، وكانت تلك التلميحات والتنويهات تسبب للكونتيس

قلِّقًا واكتئابًا، فكانت تتفحص وجه زوجها بنظرة صارمة تارةً ووجه صديقتها تارةً أخرى، وعندئذٍ كانت هذه تحوُّل الحديث ببراءة وبساطة إلى موضوعات تافهة، غير أنَّ ناتاشا الحساسة المتفوقة في الحس المرهف على كل أفراد الأسرة، أدركت منذ أن بدأ الطعام أن في الجو شيئًا جديدًا؛ لذلك فقد راحت تصغي بانتباه عميق إلى كلِّ التنويهات، وتسجِّل كل التحولات التي تطرأ على قَسَمَات وجوه الجالسين، محاولة اختراق الستور ومعرفة ما وراء تلك النفحات الصوتية الغامضة، فهمت بسرعة أن هناك سرًّا، وأن ذلك السر يتعلق بنيكولا، وأنه كامن بين أبيها وبين أنا ميخائيلوفنا، بل وأدركت أن هذه تمهِّد السبيل للإفضاء بذلك السر، ولما كانت تعلم أن كل ما يتعلق بنيكولا يثير أمها ويزعجها، فإنها لم تجرؤ — رغم جرأتها وطيشها — على طرح أي سؤال، لكنها كانت في غمار لهفتها ناسية الطعام الذي بين يديها، فلم تُصَب منه إلا قليلًا. لم تكن لتستقرَّ على كرسيها متجاهلةً ملاحظات مربِّيَّتِها، وما إن نهض أفراد الأسرة عن المائدة حتى هرعت إلى أنا ميخائيلوفنا كالمجنونة، فلحقتُ بها قرب المخدع، وهناك قفزت إلى عنقها، فتعلقت به وهتفت: يا عمّاه، يا عمّتي الصغيرة العزيزة، نبئني بالخبر!

— ليس من خبر يا عزيزتي.

— بلى، بلى، إنني واثقة من أنك تلقيت شيئًا جديدًا، آه يا عزيزتي، يا جميلتي، يا معبودتي، قولي لي فورًا ما الخبر وأسرعني؛ لأنني لن أفلتكَ قبل أن تُنْهِيه إليّ.

فقالت السيدة الطيبة وهي تهز رأسها: إنك مرهفة الحس يا طفلي.

فهتفت ناتاشا: إنها رسالة من نيكولا، أليس كذلك؟

ولما قرأت على وجه أنا ميخائيلوفنا ما يدَّعم هذا الرأي أردفت: بلى، رسالة من نيكولا،

بالتأكيد!

— كوني حكيمة بحق السماء، إنك تعرفين مبلغ ما يعتري أمك من انفعال لهذا النبأ.

— نعم، نعم، ولكن نبئني بالخبر، حدِّثيني، ألا تريدان؟ حسنًا، إنني ذاهبة من فوري إلى أمي أخبرها ...

فاضطرت أنا ميخائيلوفنا إلى إيجاز فحوى الرسالة الواردة في بضع كلمات، وناشدتها أن تكتم الخبر عن الجميع، فقالت ناتاشا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها: أعدك وَعَدَ شرف ألا أقول ذلك لأحد!

وهرعت لفورها إلى سونيا، وقالت لها وهي تكاد تطير من الفرح: سونيا، إن نيكولا ... جريح ... هناك رسالة منه.

فامتقع وجه سونيا، ولم تستطع النطق إلا بكلمة واحدة: نيكولا! وأدركت ناتاشا من اضطراب ابنة عمها مبلغ ما في الخبر الذي وافتها به من شَجِنٍ وحزن، فارتمت على عنقها، وذابت في دموعها. راحت تُطمئننها خلال نحيبها بقولها: لقد جُرح جرحًا خفيفًا، وسيصبح ضابطًا بعد قليل، إن حاله بتحسن مستمر، ولقد كَتَبَ الرسالة بنفسه وبخطِّ يده. وهنا أعلن بيتيا، الأخ الصغير وله من العمر تسع سنين، وكان يذرع الغرفة بخطوات ثابتة: إِنَّ كل النساء — ولا شك — لَسَنَّ إلا نائحات منتحبات، أما أنا، فإنني سعيد جدًا؛ نعم سعيد حقًا أن يكون أخي قد أبرز شجاعته على هذا الشكل، إنكن نائحات سخيفات، لا تفقهن شيئًا من شيء.

فابتسمت ناتاشا رغم دموعها بينما سألتها سونيا: هل قرأتِ الرسالة؟ — كَلَّا، لكنها أنبأتني بأنه شُفي تمامًا، وأنهم رَقَّوه إلى رتبة ضابط. فقالت سونيا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها: حمدًا لله! ولكن لعلها لم تنبئك بالصدق، هيا بنا إلى «ماما».

وكان بيتيا لا يزال في تجواله صامتًا، قال: لو أنني كنت بدلًا من نيكولا، لَقَتَلْتُ مزيدًا من أولئك الفرنسيين، يا للأوباش! كنت قتلت منهم عددًا كبيرًا، وكثلت جثثهم حتى يبلغ ارتفاعها هكذا!

وأشفع ذلك بإشارة من يده مبيِّنًا الارتفاع المنشود. قالت أخته: حقًا يا بيتيا، يا لك من غبي! — لستُ أنا الغبي بل أنتن، يا مَنْ تبكين لأنثفه الحماقات. سألت ناتاشا بعد فترة صمت: هل تذكرينه يا سونيا؟ فقالت سونيا باسمَّة: تسأليني إذا كنت أتذكر نيكولا؟! فألحَّت ناتاشا وهي تؤيد خطورة سؤالها بحركة من يدها: كَلَّا يا سونيا، هل تذكرينه بشكل يجعلك تذكرين كل شيء؟ إنني أتذكر كل تقاسيمه، أما بوريس فقد نسيته تمامًا. فهتفت سونيا مذهولة: كيف؟! أنسيت بوريس؟!

— أقصد أنني لم أنسه كما تدل الكلمة عليه، إنني أعرف كل تقاطيعه بالطبع، لكنني لا أذكره كما أذكر نيكولا، إنني عندما أغمض عينيَّ (وأغمضتهما فعلًا) أراه أمامي، أما بوريس، فعلى العكس، إنني لا أراه أبدًا.

قالت ناتاشا وهي تنظر إلى صديقتها بخطورة وجلال، وكأنها قدّرت أنها لا تستحق الإصغاء إلى ما تقول، فراحت تخاطب شخصاً آخر، لم يكن دأبه المزاح والهذر: آه ناتاشا، آه ناتاشا! إنني أحب أحاك، ومهما حصل له أو لي، فإنني لن أنقطع عن حبه طيلة أيامي. أُرَتِّج على ناتاشا، وحاترت في الجواب الذي تقدمه، فاكتفتُ بالتحديق في وجه ابنة عمها بنظرة حافلة بمعاني الدهشة، كانت تشك وترتاب في صدق قول سونيا، وفي إمكانية وجود غرام من هذا النوع، ولكنها لم تجد مندوحة عن الاعتراف بجواز مثل هذا الأمر، خصوصاً وأنها لم تكن بعدُ قد شعرت بشيء من هذا القبيل، واجتازت اختباراً من هذا النوع، وأخيراً سألت: هل ستكتبين له؟

استغرقتُ سونيا في التفكير، كانت منذ وقت طويل تتساءل بقلق عما إذا لم يكن من الواجب عليها أن تكتب لنيكولا، وعن العبارات التي تتلاءم مع هذه الغاية، أما الآن وقد غدا بطلاً، وأصبح ينتظر ترقيته إلى رتبة ضابط، فهل من النبل في شيء أن تعيد إلى ذاكرة الفتى ذكراها؟ ألن يفسر رسالتها بأنها نداء وتذكير بالعلاقة والالتزام الذي تعهد به حيالها؟

قالت وقد تضرّج وجهها خجلاً: في الحقيقة لستُ أدري، ولكن يبدو لي أنني أستطيع أن أكتب له طالما أنه يكتب لنا بدوره.

- وهل ستشعرين بالخجل إن أنتِ كتبتِ؟

فقالت سونيا باسمّة: ابدأ، لماذا أخجل؟

- لست أدري، هكذا ... إن ذلك قمين بارتباك.

وهنا تدخّل بيتيا من جديد، وقال وهو شديد الألم لملاحظة أخته الأخيرة: أما أنا فأعرف لماذا تشعر بالخجل؛ ذلك لأنها بعد أن أحببت بوريس وتعلّقت به، عادت تعشق ذلك الضخم ذا النظارات (ويقصد به الكونت بيزوخوف الجديد الذي لم يجد بيتيا وصفاً آخر ينطبق على مظهره الطيب الساذج) وها هي الآن مفتونة بالمغني (وكان يقصد ذلك الإيطالي الذي يقوم بدور أستاذ الموسيقى بالنسبة لناتاشا) هذا هو سبب خجلها.

قالت ناتاشا: كم أنت غبي يا بيتيا!

- لستُ أكثر غباءً منك يا صديقتي الطيبة!

نَطَقَ الطفل بهذه الجملة بثبات الكهل المحنَّك الخبير.

تذكرت الكونتيس وهي في غرفتها بعد الطعام إلى التلميحات التي فاهت بها آنا ميخائيلوفنا على المائدة، فغرقت في أريكتها، واستغرقت في تأمل صورة ابنها الصغيرة

المنقوشة على غطاء علبة سعوطها، تَلَأَلَت الدموع في عينيها، وطفرت تبلل أهدابها، وفي تلك اللحظة، كانت أنا ميخائيلوفنا تقترب من غرفة صديقتها بخطوات متسللة والرسالة في جيبها، قالت للكونت الذي كان يريد اللحاق بها: كَلَّا، لا تدخل. انتظر برهة. وأغلقت الباب وراءها.

أَلصق الكونت أذنه بثقب الباب منصتًا، وانتظر اللحظة المناسبة لدخوله. لم يسمع بادئ الأمر إلا موضوعات تافهة، ثم خطبة مطولة من أنا ميخائيلوفنا، أعقبتها صرخة وبعدها سكون، ولم يلبث ذلك السكون أن مزقته هتافات البشر والفرح المتبادلة بين الصديقتين، وعلى وقع خطوات ظهرت أنا ميخائيلوفنا تدعوه إلى الدخول، كانت تعابير وجهها تشبه تعابير الجراح الماهر، الذي جاء يفتح الباب للجمهور الراغب في عيادة المريض بعد أن فرغ من إجراء عملية خطيرة له بنجاح خارق، استحق عليها الثناء والتكريظ.

قالت للكونت بفخار، وهي تشير إلى الكونتيس التي كانت ممسكة بعلبة السعوط في يدٍ ورسالة نيكولا في الأخرى، تقرأها بشغف وتقبّلها دوريًا بتحنان: لقد انتهى الأمر. ولما وقع بصر الكونتيس على الكونت، مدّت ذراعيها نحوه، وأحاطت بها رأسه الأصلح، وقدّرت أنها مستطبعة إعادة تلاوة الرسالة، وهي على ذلك الوضع والتأمل في الصورة المنقوشة على غطاء علبة السعوط، بل إنها اضطرت إلى تضيق الخناق على الرأس وصاحبه؛ ليتسنى لها تقبيل تلك الأشياء بكل راحة. ودخل الأولاد؛ فيرا، ناتاشا، سونيا وبيتيا بدورهم، وأعيدت تلاوة الرسالة على مسامعهم أيضًا، كان نيكولا يورد في رسالته وصفًا موجزًا للجبهة والمعركتين اللتين اشترك فيهما، ثم يخبر ذويه أنه رُفِع لرتبة ضابط، وأخيرًا قال في رسالته إنه يقبّل يديّ ماما وبابا، ويلتمس بركاتهما ودعاءهما، ويقبّل وجنّات فيرا وناتاشا وبيتيا، ويبعث بتحياته إلى السيد شيللنج والسيدة شوس وإلى المربية، ويطلب إليهم أن يقبلوا سونيا العزيزة نيابةً عنه مؤكدًا أنه لا زال يحبها كسابق عهده، ويحتفظ بذكرها بكل إخلاص، ولما بلغت الكونتيس في القراءة هذا المقطع اندفعت الدماء في وجنتي سونيا، وتَلَأَلَت الدموع في عينيها، ولما أخفقت في الصمود للنظرات التي راحت تحدق في وجهها، جرت هاربةً بكل قواها، فدخلت البهو الكبير، واستدارت حول نفسها من الفرح، فانتفخ ذيل ثوبها، وغدا كالكرة الضخمة، وجلست على الأرض مزرجة الوجه باسمه الثغر.

كانت الكونتيس تبكي لذكرى ابنها، فقالت لها فيرا: لماذا تبكين يا أماه؟ إن رسالته تستحق أن يفرح الإنسان لها بدلًا من البكاء.

كانت الملاحظة في محلها، مع ذلك فقد راح الكونت والكونتيس ونااتاشا والآخرون يحدجونها بنظرات اللوم والعتاب، كانت أمها تتساءل: «بمن هي متعلقة إذن؟»
تُلِيت رسالة نيكولا مرات ومرات، غير أن أولئك الذين رُوي أنهم يستحقون الإصغاء إلى ما جاء فيها، كانوا يحضرون إلى حيث كانت الكونتيس لتقرأها عليها؛ لأنها ما كانت توافق على التخلي عن رسالة ابنها، وهكذا فقد مرَّ أمامها رؤساء الخدم والمربية وميتانكا وعدد من الأصدقاء، وفي كل مرة كانت الكونتيس تعيد التلاوة بشغف جديد، وبعد كل تلاوة جديدة، كانت تكتشف في نيكولا من الصفات ما فاتها إدراكه في المرة السالفة. وهكذا فإن ذلك الابن، الذي كان في أحشائها قبل عشرين عاماً يتحرك بجسده الضئيل الضعيف، ذلك الابن الذي تشاجرت بسببه مع الكونت الذي كان يُدَلِّله بكثرة، ذلك الابن الذي كان أول ما نطق به من الكلام هو: «إجاصة»، ثم تعلَّم بعدها كلمة «سيدة»؛ ذلك الابن بالذات قد أصبح الآن بعيداً عنها في بلاد غريبة، وحيداً دون مساعدة ولا دليل، يقوم بأعمال الرجال، يا لها من فرحة! لكن الموضوع يستوجب كذلك الدهشة والذهول، أصبح أن العالم كان لا يكاد يجهل أن الأطفال يصبحون بالتدريج رجالاً وربما أبطالاً! غير أن هذا التدرج الطبيعي العام، الذي ينطبق على كل البشر، ما كان معروفاً من الكونتيس قبل ذلك اليوم. نسيَت الكونتيس أن الملايين من البشر قد مروا في هذه المراحل من التطور، فراحَت ترفض الاقتناع بأن ولدها «ذاك» قد بلغ مبلغ الرجال. منذ عشرين عاماً، عندما كانت تحمل هذا الصغير قرب قلبها، ما كانت تصدِّق أنه سيرضع ثديها يوماً، ويتعلم الكلام بعد ذلك. وكذلك الآن، فإنها لا تصدق أن ذلك الصغير بالذات قد أصبح — كما كانت تنبئ رسالته — رجلاً باسلاً جديرًا بأن يكون مثلاً يقتدي به الأبناء كلهم، بل والجنس البشري بكامله!

كانت تقول وهي تعيد تلاوة المقاطع الإنشائية الوصفية في الرسالة: يا له من أسلوب جميل! يا للبراعة في وصف الأشياء! ثم يا لله من قلب الذي له! إنه لم يتحدث بكلمة واحدة عن أماله، ولا همسة! إنه لا يتحدث إلا عن واحد اسمه دينيسوف، مع ذلك فإنني واثقة من أنه أشدهم بسالة وأكثرهم إقدامًا، ثم إنه يهمس بكلمة واحدة عن العنت الذي لاقاه والمشقة التي احتملها، يا لقلبه الكبير! إنني أتعرف على ذلك القلب من خلال الأسطر! ثم إنه عني عناية خاصة بإبلاغ تحياته وتمنياته للجميع، فلم ينسَ أحداً ولم يستثنِ أحداً! لقد كنت أقول دائماً أنه نبيل كبير القلب، نعم، منذ أن كان هكذا في طوله!

وانقضت ثمانية أيام لم يكن للأسرة من همٍّ خلالها إلا كتابة الرسائل، ثم تمزيقها لعدم صلاحيتها، ثم إعادة كتابتها من جديد.

هياً الكونت تحت إشراف الكونتيس كلّ التجهيزات اللازمة للضابط الجديد، ولما كانت أنا ميخائيلوفنا قد أحاطت ابنها بكثير من الرعاية وأسلمت أمره إلى عدد من المتنفذين، فإن الأسرة استطاعت بفضل هذه التدابير المسبقة أن تتصل بابن أنا بكل سهولة، خلافاً لما كان عليه حال نيكولا، وهكذا فقد كان رسول الغراندوق كونستانتان بافلوفيتش، قائد الحرس العام، يتعهد إيصال الرسائل بأمانة، وبدت عبارة: «الحرس الروسي في الخارج» المطبوعة على الأوراق والغلافات كافية بنظر آل روستوف لتكون عنواناً مضموناً. كانوا يقولون: طالما البريد يصل إلى يديّ الغراندوق قائد الحرس العام، فإنه ليس هناك ما يبرر عدم وصوله إلى سرية بافلوجراد التي ينبغي ألا تكون بعيدة جداً عن مكان وجوده، وهكذا قرروا إرسال ما ينبغي من المال مع رسالة في بريد الغراندوق باسم بوريس وتكليفه بتسليمها: المال والرسالة إلى نيكولا. وجمعت الرسائل من الكونت والكونتيس وبيتيا وفيرا وناتاشا وسونيا، وأضيف إليها مبلغ ستة آلاف روبل قدرت أنها كافية لشراء التجهيزات اللازمة، وأُرسلت جميعها في البريد، بريد الغراندوق، مع عدد من الأشياء المختلفة التي قدر الكونت العجوز أنها ضرورية يجب إيصالها لولده نيكولا.

الفصل السابع

نقولا في الحرس الإمبراطوري

في الثاني عشر من تشرين الثاني، كان جيش كوتوزوف الذي كان معسكرًا في ضواحي أولوتز، يستعد للقيام باستعراض كبير غداة اليوم التالي أمام الإمبراطورين الروسي والنمسوي، وكان الحرس الروسي، الذي وصل مؤخرًا، يقضي الليل على بُعد أربعة أميال من المدينة، وكان عليه الظهور في ساحة العرض في الساعة العاشرة صباحًا.

في ذلك اليوم بالذات، تلقى نيكولا روستوف كلمة من بوريس يُنبئها بأن فيلق إسماعيل مُعسكر على مسافة أربعة أميال خارج أولوتز، وأنه ينتظر قدومه إليه ليسلمه رسالة ومبلغًا من المال أرسلهما ذووه، وكان نيكولا في ميسيس الحاجة إلى المال؛ لأن معسكره كان محاصرًا بعدد كبير من الباعة اليهود النمساويين الذين كانوا يقدمون للضباط والجنود سلعًا مختلفة مغرية ومتاعًا وتسلية، وكانت أيام ضباط بافلوجراد تمضي في سلسلة متصلة من الولائم والحفلات والشرب، وهي ميزات خُصصت لهم إبان انتقالهم، فكانوا لا يفتنون يترددون إلى أولوتز، إلى حانة أسستها امرأة اسمها كارولين الهنغارية، جعلت مستخدميهما كلهم من الجنس الناعم، وكان روستوف قد احتفل منذ أيام بترقيته الجديدة، واشترى حصان دينيسوف (بيروان)، فتورط في ديون كثيرة موزعة في غير عدل بين الباعة وزملائه؛ لذلك فإنه ما كاد يتلقى كتاب بوريس حتى بادر إلى الذهاب إلى أولوتز، وهناك تناول طعامه، وجرع زجاجة من الخمر بصحبة زميل، وراح يبحث عن صديق طفولته، لم يكن قد أتم تجهيزاته بعد؛ لذلك فقد كان ممتطيًا صهوة جواد روسي استعاره من أحد القوقازيين، ومرتديًا سترة الجندي القذرة، وقد التمتع عليها صليب يُمنح للجنود، وسراويل ركوب مرقعة، وتَمَنَّقَ بحسام ضابط في فرسان الدراجون، وغطى رأسه بقلنسوة مشوهة أمالها على أذنه بمجون، ولما اقترب من معسكر

الحرس، راح يفكر في الأثر الذي سيحدثه مظهره العسكري وحركاته التي انطبعت بطابع فرسان الجيش على بوريس والسادة أفراد الحرس.

والحقيقة أن فرقة الحرس كانت قد التحقت بالجيش المحارب، وكأنها زاهية إلى نزهة خلوية، لقد كان أفرادها على أوفر حظ من التنظيم وشموخ الأنف، وألبستهم نظيفة أنيقة لا تقبل النقد، ولقد كانت المراحل الذي قطفها رجال الحرس قصيرة جداً والأمتعة والمهمات والأكياس وما إليها كانت تُنقل على عربات، أضف إلى ذلك أنهم في كل مراحل الطريق كانوا يُطعمون أفخر الطعام الذي كانت السلطات النمساوية تجهزه خصيصاً من أجلهم، فكانت السرايا عند دخولها إلى المدن، تسير على إيقاع الموسيقى وصداها، وتخرج منها على تلك الحال. وكان مقرراً أن يقطع رجال الحرس تلك المراحل بنظام السير الإيقاعي؛ الأمر الذي كان يجعل الأفراد شديدي الفخار والاعتداد، فكان الضباط في أماكنهم المقررة بين الصفوف وإلى جانبيها، يتيهون في أثوابهم الأنيقة. وكان بوريس قد قطع المرحلة كلها إلى جانب بيرج الذي أصبح قائد سرية بفضل دقته وعقليته النظامية، وكان يتمتع بكل ثقة رؤسائه بوصفه من النوع الذي لا يجب أن يُهمل شأنه، وكان بوريس من جانبه قد ارتبط بعلاقات مُجدية نافعة؛ نذكر منها تعرّفه إلى الأمير أندريه بولكونسكي، الذي تلقى من بيير بيزوخوف توصية خاصة تدعوه للعناية ببوريس، وكان يعتمد على دعم الأمير وحمايته؛ ليلتحق بأركان حرب القائد العام كوتوزوف.

كان بيرج وبوريس في أبهى زينتهما، ينعمان بالراحة بعد المرحلة الأخيرة، ويقضيان الوقت بلعب الشطرنج حول مائدة مستديرة في النزل المريح الذي عُيّن لهما، وكان بيرج مودعاً غليونه المشتعل بين ركبتيه، بينما كان بوريس يبني أهرامات بالبيادق التي ربحها من صديقه، منصرفاً إليها باهتمامه على عادته، يسويها بيديه الناصعتين الدقيقتين، وهو لا يني يراقب زميله الذي كان عليه أن يجيب على حركته، وكان بيرج — وهو المخلص لمبدئه القاضي بعدم الاهتمام إلا بعمل واحد حتى إنجازه — منصرفاً بكليته إلى اللعبة غافلاً عن كل ما حوله.

سأله بوريس: هيا، دُلّني على المخرج الذي ستجده لورطتك الآن.

فأجاب بيرج وهو يلمس بيداً لا يلبث حتى يُفلته: سوف نعمل ما في وسعنا.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب، هتف روستوف: آه، ها هو ذا أخيراً! ها إن بيرج موجود

كذلك!

وأردف مقلداً لهجة مربيتهم العجوز التي كانت كثيراً ما تُضحكهم من قبل:

هيا يا أطفال، اذهبوا لتستلقوا وتناموا!

ونهض بوريس لاستقبال روستوف وهو يقول: ربا، كم تبدلت!
تخلّص من وراء المائدة وهو يسعى بإبقاء أهراماته على حالها، واندفع يريد معانقة روستوف، غير أنّ هذا تنحّى عن طريقه ممتنعاً، لقد درج الفتيان الشباب على تنكّب العادات المألوفة؛ لأنهم يفضلون اللجوء إلى أساليبهم الخاصة التي لا تتفق غالباً مع ما هو مألوف بين الكبار من عادات، لعلها لا تخلو أحياناً من الأنانية والاصطلاح، وهكذا فضّل نيكولا أن يحيّي رفيق صباه على طريقتهما السالفة، معرباً له عن سروره بلقائه؛ تلك الطريقة التي درجا عليها، والتي لا تخرج عن نكّعة أو قرصة في الأذن. أما بوريس فعلى العكس، لقد اندفع نحوه وقبّله ثلاثاً دون خجل مصطنع، وبمحبة قلبية واضحة. لقد مضى على افتراقهما أكثر من ستة أشهر؛ لذلك فقد راح كلّ منهما يتأمل التغيرات التي نالت من رفيقه، تلك التغيرات التي يعود الفضل فيها للوسط الذي عاش فيه كلّ منهما، وأخذ كلّ منهما يبيّن للآخر المعالم البارزة في تلك التغيرات الجديدة.

قال روستوف بصوته الذي لم يألّفه بوريس، وبلهجة عسكرية صحيحة، وهو يشير إلى سراويله: إه أيها الملاعين، ها إنكما على أجمل زينة، وكأنكما في نزهة، خلافاً لحالنا نحن جنود الجبهة التعساء!

وأطلّت صاحبة المسكن الألمانية خلال الباب الموارب مستغربة مثل هذه الصيحات، فغمز لها نيكولا بعينه وقال: ماذا هناك يا جميلتي؟

فقال بوريس: لا تصرخ هكذا، سوف تخيفهم، في الحقيقة إنني ما كنت أنتظر قدومك اليوم؛ لأنني لم أرسل إليك رقعتي إلا البارحة بواسطة أحد ضباط كوتوزوف المساعدين الذي عرفه، إن اسمه بولكونسكي، وما كنت أظن أنك ستلتقي الرقعة بمثل هذه السرعة. ليكن، كيف حالك؟ لقد بلوت القتال إذن، أليس كذلك؟

فحرك روستوف صليب سان جورج المعلق فوق سترته العسكرية المخرجة، وأبرز ذراعه المعلقة إلى عنقه، ونظر إلى بيرج باسمًا دون أن يجيب، وأخيراً قال: أظن أنّ نعم! فاستطرد بوريس وهو يبسم بدوره: طبعاً، طبعاً، بديع! أما نحن، فإننا قمنا كذلك برحلة بديعة، إنك تعرف أنّ سُمُوّه ظل يقطع الطرق تواكبه كتيبتنا، وبذلك أتاحت لنا كل أنواع المتعة؛ ففي بولونيا لم نشعر بالوقت يمضي ونحن نتنقل من حفلة راقصة إلى وليمة حافلة إلى حفلات استقبال فخمة، ولقد كان التسيزاريفيتش — لقب يعطى رسمياً لابن القيصر البكر الذي سيخلفه في تسلّم العرش — شديد العطف على الضباط جميعاً. وراح الصديقان يطريان أعمالهما؛ الأول يمتدح الفرسان، ويطنب في وصف شجاعتهم في الحرب، ويثني على حياة التقشف التي يحيونها، والآخر يعدد الميزات

والاعتبارات الكثيرة التي يَنعم بها أولئك المنتسبون إلى سلاح يكون قواده محط أنظار الناس واحترامهم.

قال روستوف: آه، إننا نعرفكم معشرَ رجال الحرس! ماذا يا عزيزي لو أرسلتَ من يأتينا بزجاجة؟

فعبس بوريس ثم قال: إذا كنتَ تُصرُّ، فلا بأس.

وأخرج كيس نقوده المخبأ تحت الوسائد النظيفة، وأصدر أمره بإحضار الشراب وقال: وبهذه المناسبة، سأعطيك الرسالة الواردة باسمك والمال.

أخذ روستوف الرزمة، فألقى بكيس النقود على الأريكة، واتكأ بمرفقيه على الطاولة، وراح يقرأ الرسالة، ولم يكد يطالع الأسطر الأولى حتى راح يحدق بيرج بنظرات التضجر، لقد شعر أنَّ عيون بيرج شاخصة إليه، فجعل من الرسالة ستارًا يحجب نفسه وراءه.

قال بيرج وهو ينظر إلى كيس النقود الفارغ في الأريكة: إنهم أرسلوا إليك مبلغًا كبيرًا على ما يبدو، مساكين نحن يا كونت؛ لأننا لا نملك إلا راتبنا الحقيقير نتبلغ به، وأنا من أفراد هذا الحرس.

فهتف روستوف: اسمع يا بيرج، إذا وقع لك أن تسلمتَ أمامي رسالة من ذويك، وكان إلى جانبك أحد المقرَّبين إليك يرغب في أن يطرح عليك ألف سؤال وسؤال، فثِقْ بأنني أكفيك مئونة التخلص من بقائي، فاعمل إذن كما كنتَ سأعمل لو كنتَ في مثل موقفك، واذهب إلى حيث تشاء. وليكن إلى الشيطان!

وعلى حين فجأةً استدرك نفسه، وخفض صوته، وقام إلى بيرج يمسك بذراعه، ويُصلح بنظرة متوردة ما أفسده بكلماته القاسية، أردف بلطف: لا تغضب يا عزيزي، أرجو أن تعذر صراحتي، لكنني أعاملك معاملة الصديق القديم الودود.

فقال بيرج بصوت محتبس وهو ينهض: لا تبتئس يا كونت، إنني أفهم شعورك.

وقال بوريس من جانبه: أتدري أن مضيفينا دعوك إلى البقاء؟

حمل بيرج سترته النظيفة الخالية من كل شائبة، وأصلح شعره أمام المرآة، وسوَّاه فوق صدغيه على طريقة الإمبراطور ألكسندر، وخرَجَ باسمًا راضيًا بعد أن دلَّته نظرة ألقاها على روستوف أن مظهر ثوبه الأنيق قد أحدث الأثر المطلوب في نفس الفارس المخشوش.

تنهَّد روستوف وهو يعود إلى قراءة رسالته: آه! يا لي من حيوان!

— كيف؟ ماذا هناك؟

فكرّر مزمجراً، وقد احمر وجهه بغتة: آه! يا لي من حيوان إذ لم أكتب لهم مرة من قبل أن أسبب لهم كل هذا الخوف! آه! يا لي من حيوان! ولكن أيها الغليون المحترق، هل أرسلتَ تابِعك يأتينا بالخمِر؟

- نعم.

- إذن من الخير أن نتناول قدحاً.

كانت الكونتيس روستوف قد أضافت إلى رسالتها الشخصية إلى ابنها رسالة توصية للأمير باجراسيون، حصلت عليها بواسطة صديقتها أنا ميخائيلوفنا، وكانت تتوسل إلى ابنها أن يستفيد منها إلى أقصى حدود الفائدة. هتف روستوف وهو يلقي بكتاب التوصية أسفل المائدة: يا للغباء! لست في حاجة إلى مثل هذا أبداً!

سأله بوريس: لماذا ألقىتَ بهذه الرسالة؟

- إنها كتاب توصية! يا لكوسيلة المناسبة! لست أبالي بها!

فقال بوريس وهو يلمُّ الرسالة، ويقرأ ما جاء فيها: كيف لا تبالي؟! يمكن أن تفيدك هذه الرسالة كثيراً.

- لن تفيدني في شيء؛ فلن أكون ضابطاً مساعداً لأحد.

- ولماذا من فضلك؟

- لأن هذا من عمل الخدم لا الجنود!

فقال بوريس وهو يهزُّ رأسه: لا زلتَ ذلك الحالم الساهم كما أرى.

- وإنك لا زلتَ ذلك «الدبلوماسي» المعهود، ولكن دعنا من هذا، قل ماذا أصبحتَ وما هي أخبارك؟

- الواقع أنني بخير حتى الآن، لكنني أعترف لك بأنني لا أرغب في البقاء في الجيش العامل لفترة طويلة، لك أن تثق بأنني لن أخجل أبداً لو أصبحتُ ضابطاً مساعداً.

- ولماذا؟

- لأنني إذا كنتُ اخترتَ الجندية سبيلاً، فما ذلك إلّا لأخلق لنفسني مركزاً لامعاً.

فقال نيكولا الذي كانت أفكاره تبدو في مكان آخر: صحيح!

كانت عيناه تحدقان في عيني صديقه، وكأنه يبحث عبثاً عن جواب لسؤال معين.

وجاء التابع العجوز بالخمِر، فقال بوريس: لعلنا نستطيع استدعاء ألفونس

كارليتش، سوف تفرغ الزجاجاة معه؛ لأنني امتنعت عن الشراب أخيراً.

فسأل نيكولا مشفعًا سؤاله بضحكة مزدرية: لا بأس، لا بأس. قل لي أي نوع من الناس هو هذا الألماني؟

— إنه فتى باسل لطيف جدًا وعظيم الاستقامة.

حجج روستوف صديقه بوريس فترة، وأطلق زفرة طويلة.

لم يلبث بيرج أن عاد، وكانت الخمر قد حُلَّت عُقد اللسان، فراح الحديث يتشعب بحماسة، أخذ ضابطا الحرس يرويان لروستوف الحوادث التي وقعت لهم خلال الطريق، وينهيان إليه تفاصيل الاستقبالات التي نُظمت لهم في روسيا وبولونيا والخارج، وصَفَا له تصرفات رؤسائهم وحركاتهم وبصورة خاصة تصرفات الغراندوق، وقصًا عليه عديدًا من النوادر والفكاهات حول سلامة طويته وثورات غضبه. ومن الطبيعي أن بيرج لم يكن يتحدث إلا إذا كان الموضوع يتعلق بشخصه بالذات، ولكن ما إن دار البحث حول الغراندوق ونوبات غضبه، أعرب عن فخاره؛ إذ استطاع أن يتحدث معه في جاليسيا،^١ خلال جولة تفتيشية قام بها سُموه للقطعات في الميدان، وبدا عليه أنه غير راضٍ عن تحركات الجنود. قال بيرج موضحًا وعلى شفثية ابتسامة منتصرة إن التسيزاريفيتش اندفع بحصانه نحوهم وصاح: «يا لكم من عصبة باشيبوزوك!» — وهي السبة المفضلة لدى سُموه عندما يكون غاضبًا — وسأل بالاحاج أن يتقدم قائد السرية منه، وأردف: لعمري أيها الكونت، إنني لم أشعر قط بالخوف؛ لأنني كنت أعرف عدم مسئوليتي في الأمر، أنا لا أمتدح نفسي يا كونت، لكنني أؤكد لك أنني أحفظ عن ظهر قلب كل الأوامر اليومية الصادرة وأتمسك بها، كما أحفظ عن ظهر قلب صلاة «أبانا الذي ...» وهكذا فإنني في سريتي لا أتحوّل قط عن النظام؛ ولهذا السبب كنت دائمًا مرتاح الضمير هادئ البال؛ وإن فقدت تقدمتُ ممتثلًا (ونهض بيرج يُمثّل حركاته، حينما تقدّم من الغراندوق رافعًا يده بالتحية إلى حافة خوذته، فاتخذ وجهه طابعًا امتزجت فيه اللامبالاة بالاعتداد بالنفس والرضى عنها إلى أقصى حدودهما) فبدأ يشتمني ويكيل لي السباب حتى غسلني فيها غسلًا كما يقال، وتحدّث فوصفني بكل الصفات، وأدرجني في كل الفئات: «منحط، باشيبوزوك، طريدة سيبييريا!» فلم يترك كلمة إلا وقالها.

^١ جاليسيا: مقاطعة بولونية، كانت حتى عام ١٩١٨ جزءًا من النمسا، وكانت مركز الحكومة، وتضم كراكوفيا ولوو LWOW وستانيسلا وو وتاررنبول، وعدد سكانها ٨ ملايين نسمة، وقد أصبح الجزء الشرقي: لوو LWOW، تابعًا لأوكرانيا عام ١٩٤٥. (المترجم)

وهنا ابتسم بيرج وأعقب: ولما كنتُ واثقًا من براءتي مما يُنسب إليّ، فإنني لم أُنْفَوْهُ بكلمة، أَلَسْتُ على صواب يا كونت؟ فصرخ لي: «هل أنت أبكم يا هذا؟» لكنني لبثتُ صامتًا لا أجيب، لك أن تصدقني إذا شئتَ يا كونت، حينما أقول لك إنه في صباح اليوم التالي عند اجتماع الصباح لم يُذكر شيء عن حادثة أمس في التقرير اليومي ولم أعاقب، وهذا يرجع إلى تمالكِي أعصابي في ذلك الموقف.

وجذب من غليونه نَفْسًا عميقًا، وراح يطلق حلقات الدخان من فمه بانتظام، وابتسامَةُ الظفر لا تفارق شفتيه.

قال روستوف مبتسمًا ابتسامَةً غامضة: نعم، هذا عين الصواب وفيه كل الكمال! شعر بوريس أن روستوف على وشك جعل بيرج هدفًا لسخريته وهزئه، فقطع عليهما الطريق بمهارة بأن سأله أين ومتى وكيف جُرح، وكان هذا الموضوع طليًا، وعلى روستوف الذي راح يتحدث بحماس أخذ في التزايد كلما أوغل في سرد التفاصيل، قصّ عليهما مسألة شوينجراين كما درج الجنود عادةً على التحدث عن مجيد الأفعال التي قاموا بها؛ أي واضحًا الأمور كما كان يريد أن تكون لا كما كانت في واقع الأمر، أو كما سمعوا غيرهم يصفها، ولا شك أن روستوف — وهو الذي تُعتبر الصراحة جزءًا من طبعه — كان يتحاشى تشويه الحقيقة، ومع ذلك، فإن روايته التي بدأت صحيحة تمامًا، لم تلبث أن اختلطت، وتداخلت تدريجيًا دون أن يشعر حتى أصبحت ادعاءً واضحًا ومبالغات تبهر العيون، كان يتعذر عليه التصرف على غير ذلك الشكل، وكان رفيقاه قد سمعا من قبل وصفًا لبعض المعارك، وكوّنوا على ضوء ما سمعا فكرةً حول الموضوع، فباتا ينتظران منه أن يأتي وضعه مصداقًا لفكرتهما، فلو أنه لم يؤشّ قصته ولم يزينها؛ لأعتقد كلاهما أنها بعيدة عن الحقيقة أو — وهنا أخطر ما في الأمر — لَعَزَوْا إلى خطيئة ما صادرة عنه بالذات تلك المخالفات الواضحة في روايته عن حملةٍ يقوم بها سلاح الفرسان؛ لذلك فإنه ما كان يستطيع القول إن سريته قنعت بالأدباء بأقصى ما في طاقة الخيل، وأنه سقط عن جواده أثناء الجري، فتحطمت ذراعه، وفر بعدها بكل ما أوتيت ساقاه من قوة هربًا من الفرنسيين.

ثم إنه لا يمكن في سرد قصة طويلة أن يتحاشى المتحدث الخروج عن جادة الصدق إلا إذا بذل مجهودًا خارقًا لكبتِ عواطفه؛ الأمر الذي قلّ أن استطاعه شابٌ حديث العهد بالجنديّة، كان بيرج وبوريس ينتظران منه أن يحدثهما بأنه انقضى على فيلق كامل من فيالق العدو، وهو يتقد حماسًا واندفاعًا فراح يفتك بهم، ويضرب بحسامه يمينًا وشمالًا،

والأشلاء تتناثر في كل حذب وصوب حتى أعياء التعب فسقط أخيراً ... إلخ ... إلخ. وقد رسم لهما روستوف لوحة مماثلة تقريباً عن بطولته وسبب جرحه.

وبينما كان في غمرة تحمُّسه لحديثه يقول: «لا يمكنك أن تتصورَ السعار الغريب الذي يصيب المرء خلال الهجوم.» دخل الأمير أندريه بولكونسكي الذي كان بوريس ينتظره، وكان بولكونسكي يحمي الشباب الجدد مُرضياً بذلك نزعته الشخصية التي كان يُرضيها لجوء هؤلاء إلى حمايته، خصوصاً وأنه كان على أتم استعداد لخدمة بوريس الذي راق له أمس واستلطف صحبته، فلما كلفه كوتوزوف أن يحمل أوراقاً معينة إلى التسيزاريفيتش، انتهاز الفرصة لزيارة بوريس، وهو يعتقد أنه سيجده على انفراد، غير أنه انزعج عندما شاهد فارساً يتبجح ويروي طرائف شجاعته؛ وهو الأمر الذي ما كان يطيق احتمال، فابتسم ببشاشة لبوريس وحيّاً روستوف بتقطعية خفيفة مشفوعة بطرفة من عينيه، أعقبهما سلام مقتضب، ومضى يجلس بإرهاق على الأريكة، كان يخشى أن يحتكَّ مع أشخاص ويتناقش معهم بلغة غير مناسبة، وقد حدس روستوف ما في خاطره، فتصرَّح وجهه خجلاً، لكنه ما عثم أن حدَّث نفسه قائلاً: «ولكن ماذا يهمني منه؟ إنني لا أعرف هذا المخلوق!» مع ذلك فإنه ما كاد يرفع أنظاره إلى بوريس حتى شعر أنه هو الآخر مرتبك من تصرفاته المقتبسة عن فرسان الجيش. وعلى الرغم من أن مظهر الأمير أندريه الفاتر المتهمك، وعلى الرغم من ازدرائه الشخصي العميق الذي يحس به بوصفه من الجنود المحاربين حيال كل هؤلاء الأذنياء الحقيرين التابعين للأركان، والذي لا بدَّ أن يكون هذا الوافد الجديد منهم؛ فإن روستوف لم يتمالك نفسه عن الاضطراب، أو يكبح اندفاع الدم الغزير إلى وجهه. وهكذا فقد صمت مرغماً، وعندئذٍ استفسر بوريس عن حوادث الأركان العامة وأخبارها، غير أنَّ الأمير بولكونسكي ما كان يستطيع التصريح أمام هؤلاء الغرباء بأمر على جانب كبير من الخطورة والأهمية؛ لذلك فقد أجاب: أعتقد أننا سنسير إلى الأمام.

وامتنع عن التعقيب على هذا القول بأية كلمة.

وانتهز بيرج الفرصة ليسأل بلهجة ملؤها الاحترام عما إذا كانت النية منصرفة حقاً إلى زيادة العلف ومضاعفته لرؤساء السرايا كما كان يشاع، فأجاب بولكونسكي بأنه لا يستطيع احتمال البت في أمور على مثل هذه الأهمية؛ مما جعل بيرج يتقبَّل هذا الرد بضحكة مرحة.

وقال بولكونسكي لبوريس وهو يختلس نظرة إلى حيث جلس روستوف: أما قضيتك أنت، فسنحدث فيها في مناسبة أخرى، لأقني بعد العرض، وسوف نعمل جاهدين على إرضائك.

وأجَالَ بصره في أنحاء الغرفة، ثم أوقفه على روستوف متظاهراً بأنه لم يدرك بلباله وارتبাকে الصبوي المشوب بالغيط، وقال له: أعتقد أنك كنت تتحدث عن مسألة شوينجراين، فهل كنت هناك؟

فأجاب روستوف معتقداً أنه سيجرح شعور الضابط المساعد بإجابته: نعم، لقد اشتركت فيها.

لكن ذلك الجواب لم يأتِ بالمفعول المنتظر، لقد تلقاه الأمير بابتسامة ساخرة، كان يجد متعة في مراقبة مزاج هذا الفارس الشاب، قال معقّباً: نعم، ثم إنهم يروون عن هذه الموقعة صنوفاً من الروايات.

فهتف روستوف وهو يلقي على بولكونسكي تارةً، وعلى بوريس تارةً أخرى، نظرة نارية مشتتة بغضبة مفاجئة: صنوفاً من الروايات! نعم، بالطبع، لكن روايتنا نحن الذين بلونا نار العدو هي وحدها الحقيقة، وليس الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء السادة الأنقيين الذين يحشرون أنفسهم في زوايا الأركان والقيادة وينالون الأوسمة وهم مكتوفو الأيدي. فأعقب بولكونسكي بلهجته الهادئة وابتسامته الوديدة متمماً: والذين تعتبرني واحداً منهم، أليس كذلك؟

خلق ذلك الهدوء الذي اتّسم به بولكونسكي احتراماً في نفس روستوف نحوه رغم أنه ضاعف سخطه وغضبه، فقال: إنني لا أقول هذا عنك، إنني لا أعرفك، ولا أريد بكل صراحة أن أتعرف عليك، إنني أتحدث عن رجال القيادة العامة بصورة عامة.

فأجاب بولكونسكي بثبات وبلهجة حازمة: وأنا أقول لك ببساطة إنك تهدف إلى إثارتي وإهانتني؛ الأمر الذي لن يعيبك فعله إذا توقفت عن احترام نفسك، ولكن اعترف معي أن المكان والزمان غير ملائمين لمثل هذا العمل، لسوف ندخل جميعاً بعد أيام قريبة آتية في مبارزة جدية من نوع آخر، ومن جهة أخرى إذا كان وجهي لم يرق لك — وهذا من سوء حظي — فإن دروبتسكوي، الذي يدّعي أنه من أصدقائك القدماء، لا دخل له في الموضوع.

وأردف وهو ينهض واقفاً: ثم إنك تعرف اسمي، وتعرف أين تجدني، مع ذلك حاذر أن تعتقد بأنني أعترك مهاناً أكثر مما تقدّر أنت نفسك الموضوع. اتفقنا، أليس كذلك يا دروبتسكوي؟ إنني أنتظر يوم الجمعة بعد العرض.

وانسحب بعد أن حيّا الشابين.

لبث روستوف مذهولاً فترةً ما، ولما وجب الجواب المناسب كان الآخر قد خرج؛ الأمر الذي ضاعف غضبه الجامع، فاستقدم جواده، وسلّم على بوريس بلهجة جافّة تقريباً، وعاد إلى معسكره، كان صراع داخلي مرير يستعرُ في نفسه طيلة الرحلة، كان يتساءل: هل يجب عليه الذهاب في الغد إلى مقر القيادة ليتحدّى ذلك الصعلوك؟ هل كان من الأفضل الامتناع عن مثل هذا الأمر؟ كان يتذوق أحياناً اللذة التي تنتظره لرؤية ذلك الدعي مذهولاً أمام فوهة مسدسه المصوّب إلى صدره، وأحياناً أخرى كان يعترف، رغم كل ما في نفسه، أنه لم يجد بين كل معارفه، رجلاً جديرًا بصداقته كهذا الضابط المساعد الهزيل اللعين.

الفصل الثامن

الاستعراض الحماسي

غداة اليوم الذي جرت فيه المقابلة بين روستوف وبوريس، كان الجيشان الحليفان، وتعدادهما ثمانون ألف رجل — لأن فرقاً جديدة مرسلّة من روسيا التحقت مؤخراً بجيوش كوتوزوف العائدة من حملتها الأوروبية — يقومان باستعراضٍ ضخم يشاهده العاهلان. كان إمبراطور روسيا مصحوباً بوليّ عهده التسيزاريفيتش والإمبراطور النمساوي يصحبه الأرشيذوق.

ولم يكد يبرز فجر ذلك النهار، حتى أخذت القطعات تنتظم صفوفًا في ساحة القلعة، وهي على أحسن حال، فكانت ألوف من الأقدام والحراب تمرُّ حيناً وأعلامها خافقة، فتقف تحت إمرة ضباطها، وتتراصّ شاغلة كل فراغ مقام بين كتل أخرى من المشاة، في أثواب مختلفة، وأحياناً يمر ألوف الفرسان على إيقاع سنايك الخيل وقعقة السلاح وصليل السيوف، فيخطرون على خيول زرقاء وحمراء وخضراء، تسبقهم موسيقاهم الصداحة، يعزفها موسيقيون على صهوات جياذ دهماء أو صهباء أو شهباء، وأحياناً، كانت المدفعية تدرج بجلبتها المعهودة، تنبعث رائحة المشاعل المضاءة في الجو، بوحداتها البرّاقة اللامعة تقطرها الجياذ، فتختلط في صفوف المشاة والفرسان. وكان الجنرالات، وكلهم في أبهى زينة وعلى صدورهم الأوسمة والأوشحة، مضرّجو الوجوه لاحتقان أعناقهم — الهزيلة منها والضحمة — في الياقات القاسية، والضباط المعطرون المضمخون، والجنود وقد اغتسلوا حديثاً وُعُنُوا بالبستهم عنايةً فائقةً وأجهزتهم وعتادهم نظيفة ولامعة، والخيول نفسها وقد نُظفت وُغسلت حتى راحت أعناقها وقوائمها تلتمع تحت إشعاع الشمس، وكأنها عُويِنَت شعرة فشعرة، كانوا كلهم يشعرون بخطورة موقفهم، ويدركون أهمية تلك الساعة الرهيبة الجليلة. وكان كلّ من المحتشدين، من الجنرال وحتى الجندي البسيط،

يَحْسُ بأنه ذرة من الرمل في صحراء أو محيط من البشر، لكنه كان معتدًا بنفوذه وسطوته وسلطانه؛ نظرًا إلى أنه جزء لا يتجزأ عن هذا المجموع الجبار الهائل.

كانت الاستعدادات قد بدأت منذ الفجر، فلم تبلغ الساعة العاشرة تمامًا حتى كانت كل الأمور على أهبة تامة. فالجيش كله، الفرسان في الطليعة والمدفعية في الوسط والمشاة في المؤخرة، كان منتظمًا في ثلاثة صفوف ضخمة متراسة على الساحة الكبرى الفسيحة، وكان يفصل بين كل قطعة وقطعة فراغ على شكل شارع فسيح مستو، كانت تلك الكتلة الهائلة المؤلفة من عناصرها الثلاثة الهامة، تشمل على قطعات كوتوزوف التي خاضت الحرب، وفي مقدمتها فيلق بافلوجراد في ثياب العرض، ثم القطعات التابعة للحرس أو للجيش التي وصلت حديثًا من روسيا وأخيرًا الوحدات النمساوية، وكانت هذه الكتل البشرية كلها محتشدة على صفٍّ واحد وفق تشكيل موحد، تخضع في قيادها لقائد واحد. وارتعشت الشفاه بدمدمة هاتفة: «ها هم، ها هم!» وسرت تلك الدمدمة في الصفوف سريان النار في الهشيم والريح بين الأغصان، وقام الجنود بحركتهم الأخيرة استعدادًا للساعة الحاسمة، فكانت تلك الحركة أشبه بموجة هادئة اجتاحت أديم محيط زاخر.

ظهر موكب مقبل عند أبواب أولوتز، وفي تلك اللحظة، مرت نسمة خفيفة فوق رءوس الجند رغم السكون المطبق الشامل، فتدبدبت نيران المشاعل، وارتعشت الأعلام في أعلى صارياتها، خُيل للناظر أن انتفاضة عامة شملت الجنود كلهم سرورًا لمقدم العاهلين، وردد الصدى صيحة مدوية تكررت منطلقة بالترتيب من أفواه مسئولة متعددة، كصياح الديك عند الفجر: اس...تعد!

تلك كانت الصيحة، فأعقبها سكون القبور.

لم تعد الأسماع تصغي إلا لوقع أقدام الجياد القادمة، ولما وصل العاهلان إلى الحشد، صدحت موسيقى فيالق الفرسان الأولى منبهة، وبدأت تلك الأصوات الموسيقية صادرة عن الجيش كله، وليس عن فرقة موسيقية بعينها، كانت موسيقى معبرة عن سعادة الجند وفرحهم بالاحتفال والحفاوة بمقدم العاهلين الفجائي، مع ذلك، فإن الصخب الموسيقي لم يحجب صوت الإمبراطور ألكسندر، الفتى الجياش، الذي كان يرد التحية للجنود، وأجاب الفيلق الأول على التحية بنداء راعد: «هورا!» طويلة تُصم الأذان، «هورا» أخافت الجنود أنفسهم مبينة لهم كبير عددهم وعظيم قوتهم وبأسهم.

استعرض الإمبراطور بادئ الأمر جيش كوتوزوف، وكان روستوف واقفًا في الصفوف الأولى، فشعر شعور كل الجنود الآخرين: إنكار للذات، وإيمان عنيف بقوته، وحماس

منقطع النظير لبطل تلك اللحظة. كان يدرك أن كلمة واحدة من هذا البطل تكفي لكي تتحرك هذه الكتلة الهائلة من البشر الذي لم يكن بنفسه إلا ذرة حقيرة من ذراتها، فتُلقي بنفسها إلى الماء أو إلى النار، وتندفع نحو الموت، وتجري وراء الجريمة أو الأفعال الأكثر بطولة وتمجيداً، وعلى ذلك فقد شعر أنه على وشك السقوط عندما اقترب الرجل صاحب تلك الكلمة.

ترددت صيحات «الهورا» من كل مكان تختلط بأصدااء الموسيقى، واستقبلت الفيالق، الواحد تلو الآخر، الإمبراطورَ بالهتاف وقرع الطبول التي تراجعت أصداؤها على شكل زمجرة هائلة مريضة متداخلة مشوشة، تصمُّ الأذان، وتخبل العقول.

كان كل فيلق — قبل وصول الإمبراطور — يبدو جامداً وكأنه لا حياة فيه. حتى إذا اقترب منه، وبات على حدود جناحه، دبَّت الحياة فيه على أعنف الصور وأقواها، فيلحق صيحاته وهتافاته بصيحات الآخرين وهتافاتهم الدوية. وفي جحيم تلك الأصوات المرعدة وذلك الصخب العنيف، وفي وسط ذلك البحر الزاخر من الجنود؛ كانت بضع مئات من خيول الحرس المواكب تبدو أقل الجميع مبالاة بالنظام وقد روعتها الصيحات، لكن فرسانها كانوا قادرين أبداً على كبح جماحها دون ارتباك، بل وفي شيء من اللامبالاة، وجعلها تقف متباعدة حسب ترتيبها الأصيل. وكان فارسان اثنان — الإمبراطوران — يسيران في مقدمة الموكب وقد تعلّقت فيهما أبصار جميع الجنود دون استثناء.

كان الإمبراطور ألكسندر الجميل الشاب يرتدي ثياب الحرس الراكب، وقد أحال قبعته المثلثة الأطراف قليلاً على أذنه، وكان يستأثر بالاهتمام العام بوجهه الوديح المشرق وصوته الداوي القوي في غير قسوة.

استطاع روستوف في مكانه قرب فصيلة الموسيقى، أن يتعرف على الإمبراطور عن بُعد، فراح يتابع حركاته كلها بعينيه الحادتين، فلما أضحى ألكسندر على بُعد عشرين خطوة، لم يعد يرى شيئاً أو يميز تقاطيع ذلك الوجه الفتى الجميل البشير. لقد استسلم لشعور لم يشعر بمثله من قبل؛ شعور امتزج فيه الحنان بالحماس والاندفاع، بدا له ذلك الرجل — في كل حركة من حركاته وكل قسمة من قسّمات وجهه — جذاباً يأخذ بمجامع القلوب.

توقف ألكسندر أمام فيلق بافلوجراد، وتحدّث إلى الإمبراطور النمسوي ببضع كلمات بالفرنسية ثم أخذ يبتسم، أثارت تلك الابتسامة ابتسامة مماثلة على شفّتي روستوف الذي أخفق في كُبّتها، وازداد تعلقه وحنينه حتى إنه شعر برغبة لا تُوصف في أن يعرب

لإمبراطوره عن حبه العميق وإخلاصه، ولما أدرك عقم تلك الرغبة واستحالة تنفيذها، شعر بحزن عميق كاد أن يفجر الدمع من مآقيه.

وفي تلك الأثناء، استدعى الإمبراطورُ قائدَ الفيلق، وراح العاهلان يتحدَّثان معه فترة من الزمن.

أخذ روستوف يناجي نفسه قائلاً: «رباه!» ماذا يكون حالي لو أنهما تحدثا معي أنا؟ إنني سأموت حتماً!

لم ينسَ ألكسندر ضباط الفيلق مَنْ شكره فقال لهم: أيها السادة، إنني أشكركم من أعماقي.

وكانت كل كلمة من هذه الكلمات تبدو لروستوف لحناً صادراً عن السماء باتجاه الأرض، آه، كم كان سيشعر بالسرور لو أنه مات في تلك اللحظة في سبيل القيصر! كان الإمبراطور يقول مسترسلاً: لقد استحققتُم بنود القديس جورج ولسوف تُظهرون جدارتكم بها.

ففكر روستوف: «نعم الموت، الموت من أجله، هو أقصى ما أتمناه!» وأضاف ألكسندر كلمات أخرى لم يتبيَّنْها روستوف، ولم يلبث الجنود أن هتفوا ملء حناجرهم: هورا!

انحنى روستوف على سرج جواده وراح يهتف كالجنود. كان مستعداً لتفجير رئتيه إذا كان في ذلك دليل كافٍ على حبه للإمبراطور!

لبث ألكسندر كالحائر فترة أمام فيلق الفرسان لا يتحرك، فتساءل روستوف: «كيف يمكن أن يحار الإمبراطور؟» ولكن تلك الحيرة لم تلبث أن بدت لناظريه — لكل حركات العاهل وتصرفاته — مليئةً بالجلال والعظمة والوقار.

غير أنَّ ذلك التردد لم يدمْ إلا لحظةً سرعان ما تبددت، تحركت قدم الإمبراطور المغيبة في أحذية ضيقة عالية الساق دقيقة المقدمة، كالتي كانت سائدة في ذلك العصر، فمست برفق كشح الفرس المحجل القوائم المولّد من عرق إنجليزي، وجمعت يده المقفزة الصروع، وعاد إلى سريه يتبعه سيل زاخر من الضباط المساعدين، راح يبتعد أكثر فأكثر ليتوقف أمام فيالق أخرى، حتى لم يعد يرى منه أخيراً إلا الريشة البيضاء التي تزين قبعته، طافية فوق ذلك المحيط المتلاطم من البشر.

شاهد روستوف بين المواكبين للإمبراطور الأمير بولكونسكي يختال على جواده بمرونة ووقار، وعادت إلى ذاكرته حوادث البارحة وتصور خصامهما بالأمس فعاد

السؤال الذي ظل دون جواب يراود مخيلته: «هل أتحده؟» وأخيراً قرر في سره: «أبداً، إن الوقت في الواقع لا يسمح بمثل هذه الأمور، ثم ما قيمة خصوماتنا الصغيرة في هذا الظرف الحافل بالإخلاص والحماس والتضحيات؟ نعم، ما قيمة التوَعُّك الذي يصيب كراماتنا في مثل هذا الظرف؟ إنني أحب كل الناس الآن، وأصفح عن الجميع!»

وبعد أن استعرضَ الإمبراطورُ كلَّ الفيالق تقريباً، راحت الصفوف تمرُّ أمامه بخطوات الاستعراضات الموزونة، كان روستوف ممتطياً صهوة حصان «بيدوان» الذي عاد فاشتره من دينيسوف، يسير وحيداً في مؤخرة كوكبته؛ أيُّ إنه كان وحيداً يلفت أنظار العاهل، وقبل أن يصل إلى حيث كان الإمبراطور، همز روستوف — وهو الفارس البار — بيدوان عدّة مرات، ونجح في جعله يسير بذلك الجنب الهائج الذي كان مشهوراً به عندما يثار ويغضب، خفض فمه المكسو بالزبد حتى كاد أن يلامس جُوشوشه، ونصب ذيله، وراح يطرح قوائمه على التوالي على ارتفاع متناسق، وكأنه يطير في الفضاء دون أن تطأ قوائمه الأرض، وهكذا مرَّ بيدوان الذي أحس بأنظار العاهل تتعلق به أمام الإمبراطور بفارسه الشاب على ذلك النمط الرائع البديع، حتى إنَّ روستوف نفسه، الذي كان ضامر البطن مضموم الساقين مبعدهما إلى الخلف متقلص الوجه منشرح الخاطر، بدا كأنه قطعة لا تتفصل عن حصانه الأهوج، فمرَّ به أمام الإمبراطور، وكأنه «شيطان من الجحيم»، على حدِّ قول دينيسوف.

قال الإمبراطور: مرحى يا فرسان بافلوجراد!

فناجى روستوف نفسه بقوله: رباه! بأية سعادة ألقى بنفسي إلى النار لو أمرني بذلك في هذه اللحظة!

ولما انتهى العرض، اجتمع الضباط الروسيون: ضباط كوتوزوف والوافدون حديثاً من روسيا، في حلقات متفرقة، واستغرقوا في الحديث الذي كان يدور بصورة خاصة حول المكافآت المنتظرة والنمساويين وألبستهم، وحول بونابرت الذي كان موقفه الخطر قد ازداد خطورة بعد وصول فيالق إيسن Essen وانضمام بروسيا إلى الحلف، غير أن الحديث كان يدور حول الإمبراطور ألكسندر بصورة عامة، فكانت كل حركة من حركاته أو إشارة من إشاراته تفسر بحماس وتوقُّد، كانوا جميعاً لا يطلبون إلا أمراً واحداً: الهجوم على العدو. كان روستوف ومعظم الضباط يفكِّرون في أنه من المستحيل أن يهزم جيش يأتمر بإمرة عاهل كهذا القيصر، فكانوا يشعرون بدنو النصر المبين، ويؤمنون به إيماناً يتوافر مثله عقب معركتين ظافرتين متتاليتين.

الفصل التاسع

طموح بوريس

غداة اليوم التالي للعرض، ارتدى بوريس أجمل ثيابه، ومضى إلى أولموتز ترافقه تمنيات صديقه بيرج الطيبة، كان يهدف إلى الإفادة من مركز بولكونسكي ليصل إلى خير المراكز وأحسنها، وكان المركز الذي يهدف إليه ويتمناه هو أن يكون ضابطاً مساعداً لشخصية قوية واسعة النفوذ، يغبطه الآخرون على سطوته ويحسدونه على قوته. كان يناجي نفسه بقوله: يستطيع روستوف، الذي يرسل له أبوه كل مرة عشرة آلاف روبل، أن يترفع ويأبى الانحناءات والاحترامات، أما أنا — الذي لا أملك شيئاً باستثناء نفسي — فإنني مرغم على شق طريقي والإطباق على الفرصة بأيدي قوية.

لم يجد الأمير أندريه في أولموتز ذلك اليوم، غير أن معالم المدينة، حيث أقيم فيها مركز القيادة العامة والسلك السياسي وأقام فيها الإمبراطوران مع حاشيتيهما بين مقربين وأقرباء؛ كل هذه الأشياء زادت في نفسه لهيبَ الشوق إلى المركز المنشود استعارةً، وحببت إليه الدخول في ذلك العالم الجديد الرفيع، ما كان يعرف أحداً في المدينة، وأحس — رغم ثوبه الأنيق — أن كل هؤلاء الرجال العسكريين، المزوّقة قلنسواتهم بالريش، المزيّنة أثوابهم بالصفائح الذهبية والخرج، الذين يخطرون بتيه وترفع في صخب وضجيج، يبدون أرفع منه مقاماً وقدرًا، حتى إنه لم يتفكر لوجوده فحسب، بل شعر أنه لا يستطيع إلا أن يتنكر لذلك الوجود التافه؛ ففي مركز القيادة، حيث استعلم عن الأمير بولكونسكي، شعر من لقاء الضباط المساعدين والحُجّاب أيضًا الذين عاملوه بلامبالاة أنهم يستقبلون كل يوم عشرات من أمثاله، حتى إنهم متبرمون من كثرتهم. وفي اليوم التالي، رجع بوريس إلى أولموتز مرة ثانية، ولعل لقاء الأمس والمهانة التي شعر بها كانا الدافع المحفز له على معاودة الكرّة، مضى إلى الفندق الذي ينزل فيه كوتوزوف وضباطه التابعون له، وكان ذلك بعد ظهر يوم ١٥ تشرين الثاني. قيل له إن الأمير موجود،

وأدخلوه إلى حجرة فسيحة كانت من قبلُ صالة للرقص، كما بدت لبوريس الذي شاهد «بيانا» باقياً في ركن فيها إلى جانب خمسة أسرة، مؤسسة إلى جانب أسرة بمائدة وبعض المقاعد، وكان أحد الضباط المساعدين جالساً قرب الباب في معطف منزلي فارسي يكتب. وكان آخر، وهو نيسفيتسكي الضخم الأحمر الوجه، مكوِّماً على أحد الأسرة معتمداً رأسه على يديه المضمومتين، يمازح زميلاً له جالساً بالقرب منه. وثالث يوقع على «البيانو» لحن فالس شاع عن فيينا. بينما انحنى الرابع على الآلة الموسيقية، يرافق العازف بالغناء. لم يبدل أحد من الأربعة من سلوكه لدى رؤيتهم بوريس. استدار الذي كان يكتب، والذي سأله بوريس عن بولكونسكي، باستياء واضح وأفهمه أن بولكونسكي كان يؤدي وظيفة معينة، وأنه إذا كان يرغب في لقائه حقاً، فعليه أن يذهب إلى قاعة الاستقبال ماراً بالباب الذي إلى اليسار! فشكره بوريس، ومضى إلى القاعة التي عينها له الضابط، فرأى فيها عدداً من الأشخاص بين ضباط وجنرالات ينتظرون.

شاهد عند دخوله جنرالاً روسياً تملأ الأوسمة صدره، واقفاً في وضعية أقرب إلى وضعية الاستعداد العسكرية، ينهي تقريره إلى بولكونسكي وعلى وجهه الناطق بالترحم أماراتُ الإكرام المعروفة عند الجنود، وكان الأمير يصغي إليه، وعلى وجهه أمارات الإرهاق المهذب، وفي عينيه ومضةٌ ساخرة، توحى للآخرين أنه لولا مستلزمات الواجب وضروراتها لما أصاخ السمع لحظة إلى كل ما يقولون، وسمع الأمير يقول له: حسن جداً، حسن، تفضل بالانتظار.

وكانت لهجته وأسلوب نطقه باللغة الروسية على الطريقة الفرنسية توحى بالسخرية والتهمك.

وقعت عيناه في تلك اللحظة على بوريس، فأغفل شأن الجنرال الذي راح يلاحقه ويتابعه، متوسلاً إليه أن ينصت إلى ما يقول، واتَّجه نحو الشاب يخصه على البُعد ببسمة بهيجة وبإيماءة من رأسه.

فهم بوريس عندئذٍ بجلاءٍ ما توقعه من قبل دون أن يلمسه تماماً؛ وأعني أن في الجيش شيئاً اسمه درجات التسلسل، وأن هذا الشيء أكثر أهمية جوهرية من الطاعة الواردة في الأنظمة والمعروفة منه، كما هي معروفة من كل رفاقه. وكان ذلك الشيء الجوهري هو الذي كان يضيق على الجنرال ذي الوجه القرمزي المحشور في ثوبه العسكري، أن ينتظر بكل احترام أن يفرغ الرئيس الأمير بولكونسكي من محادثة حامل العلم دروبتسكوي على حديثه هو، وأن يصفو مزاجه ليصغي إليه. أحس بوريس أكثر

من كل مرة سبقت أنه ينبغي له أن يخضع لذلك الترتيب الضمني أكثر من خضوعه للنظم المدونة؛ ذلك أنه رأى بنفسه أن مجرد حصوله على توصية لدى الأمير بولكونسكي جعله — وهو حامل العلم البسيط في فيلق الحرس — يتفوق دفعةً واحدةً على جنرال قادر على مَحَقِّه في الصف وسحقه.

قال الأمير وهو يمسك بذراع بوريس: إنني آسف لأنك لم تجدني أمس؛ لقد ذهبنا باتجاه فيرورهر نُعَين الأوضاع ونتفحصها، لقد أضع هؤلاء الألمان عليَّ كل يومي، إنهم عندما يتوخون التدقيق والتمحيص لا ينتهون بسهولة!

عَلَّتْ شِفَتَيَّ بوريس ابتسامةً العارف بالأمر، رغم أنه لم يسمع بذلك الاسم إلا لأول مرة، بل ولم يسمع كلمة «أوضاع» كذلك إلا للمرة الأولى، أردف بولكونسكي: إذن يا عزيزي، إنك لا زلت ترغب في أن تكون ضابطاً مساعداً، أليس كذلك؟ لقد فكرتُ فيك خلال هذا الوقت.

فأجاب بوريس، وقد تضرع وجهه بحمرة شديدة دون أن يعرف السبب: نعم، إنني عازم على تقديم طلب للجنرال القائد الأعلى الذي أوصاه لي الأمير كوراجين. وأضاف وكأنه ينتحل عذراً لسلوكه: إنني إذا كنت أنهج على هذا النحو، فما ذلك إلاً لخوفي من ألاً يخوض فيلق الحرس في معركة حقيقية.

قال الأمير: جميل جداً! سوف نتحدث عن كل هذا، لكن اسمح لي الآن أن أدخل هذا السيد، ولسوف أكون بعد ذلك رهن تصرُّفك.

وبينما مضى بولكونسكي ليعلم عن وجود الجنرال ذي اللون القرمزي، راح هذا — وهو الذي لم يكن (ولا شكَّ) يشاطر بوريس رأيه حول تفوق الترتيب النظامي لاستثناءات بروتوكولية — يحدج بإلحاح مريد ذلك الصعلوك، حامل العلم البسيط، الذي حرمه متعة التحدث براحة إلى الضابط المساعد، وشعر بوريس بالارتباك، فأشاع بنظره، وراح ينتظر عودة الأمير بفارغ صبر.

قال الأمير وهو يقوده إلى البهو ذي الأسرَّة والآلة الموسيقية «الأرغن»: إليك يا عزيزي الفكرة التي خطرت لي: أعتقد أنه من العبث تقديم طلب إلى القائد الأعلى، إنه سيُسمعك ألف مجاملة ومجاملة، ولعله يدعوك أيضاً إلى تناول الطعام على مائدته.

فكَّر بوريس في سرِّه معقَّباً: «الأمر الذي لن يكون تافهاً إذا قورن بفروض الاحترام لدرجات التسلسل»، بينما استرسل الأمير: غير أنَّ هذا لن يبدل من الأمر شيئاً؛ لأننا

— معشر الضباط المساعدين والأتباع — أصبحنا طابورًا كبيرًا، إليك إذن ما سنعمله: لي صديق، وهو الأمير دولجوروكوف، وهو فتى رائع يشغل مركز ضابط مساعد عام لجلالته، ولعلك تجهل أننا أصبحنا جميعًا؛ كوتوزوف وهيئة أركانه ونحن معهم، عديمي النفوذ الآن؛ لأن كل شيء أصبح الآن منوطًا بجلالة الإمبراطور؛ لذلك فإنني سأقابل دولجوروكوف هذا، فهيا رافقني إليه، لقد حدثت من قبلُ عنك، ولعله قادر على أخذك في معيته، أو إيجاد مركز مناسب لك حول الشمس.

كان حماس الأمير أندريه يزداد تباغًا كلما أُتيحت له الفرصة لحماية شاب ناشئ ودعمه وتقويم خطاه الأولى وتوجيهها في الحياة، وكانت تلك الحجة، حجة مساعدة الآخرين التي لم يسمح له كبريائه قط باستثمارها في سبيل نفسه، كان بولكونسكي يختلط بالأوساط الرفيعة التي تؤمن النجاح وتمهد له، ويتقرب من المتنفذين؛ لذلك فقد اعتبر أن مصالح بوريس التي أكلت إليه، بادرة طيبة ترضي نزغته، وهكذا اصطحبه معه لزيارة الأمير دولجوروكوف بكل طيبة خاطر.

عندما دخل الصديقان قصر أولوتز، كان الليل قد أفنى جانبًا من عمره، وغطى الظلام ذلك المكان الذي يقيم فيه الإمبراطوران وحاشيتهما.

أقيم ذلك اليوم مجلس حربي، حضره الإمبراطوران وكل أعضاء القيادة النمساوية والروسية، وقرر المجتمعون — خلافًا لآراء العجوزين كوتوزوف وشوارزنبرج^١ — المبادرة إلى شن هجوم عام ضد بونابرت، وكان المجلس قد أنهى اجتماعه تَوًّا حينما دخل بولكونسكي ورفيقه يستفسران عن دولجوروكوف، كان أولئك السادة — سادة المجلس الحربي — في حبور كبير بسبب الفوز الذي أحرزه حزب «الشباب» على الكهول في ذلك الاجتماع. لقد خنقوا أصوات المستمهلين المسوفين بإجماع رائع، وأحبطوا كل اعتراضاتهم بمنطق بليغ سديد، حتى إنَّ المعركة أو بالأحرى النصر المنتظر الذي توقعوا الحصول عليه أثناء مناقشتهم في المجلس الحربي، بدا وكأنه وقع وانطوى في صفحات الماضي، كانت كفة الحلفاء — الروس والنمساويين والألمانيين — هي الراجحة؛ فقواتهم هائلة متفوقة

^١ شوارزنبرج، وتُلَفَّظ شواتزنبرج، اسمه الكامل شارل فيليب أمير شواتزنبرج، وهو جنرال وسياسي ألماني، كان على رأس الجيش الذي داهم فرنسا عام ١٨١٤ واكتسحها، وُلِدَ في فيينا عام ١٧٧١، وتوفي عام ١٨٢٠. (أسرة الترجمة)

بالعدد — دون أدنى شك — على قوات بونابرت، وهي جميعها متركزة في نقطة واحدة، وكان الجنود قد أنشطهم ودَبَّ العزيمة في نفوسهم وجودُ الإمبراطورين، يتحرقون شوقًا إلى القتال، والأرض التي تقرر شَنُّ الهجوم عليها أرض معروفة مدروسة يعرف الجنرال فيروز كل التفاصيل المتعلقة بها حتى أقلها شأنًا، وهذا الجنرال هو الذي أوحى بفكرة الهجوم؛ لأن الجيش النمساوي كان أجرى في العام الأسبق مناورات كبيرة في تلك البقعة بالذات التي تقرر لقاء الفرنسيين عليها، وحدد على خرائط حديثة الوضع كل الأماكن المرتفعات والمنحدرات. أضف إلى ذلك أن بونابرت كان — ولا شك — ضعيفًا، بل وعاجزًا عن خوض معركة كبيرة.

كان دولجوروكوف — وهو أكثر المتشيعين لفكرة شَنُّ الهجوم حماسة، يخرج في تلك اللحظة من قاعة الاجتماع منهوك القوى على آخر رمق من الجَلد. لكنه كان كذلك ممثلًا حماسة واندفاعًا، فخورًا بالنصر الذي أحرزه فريقه منذ قليل، قدّم له بولكونسكي «محميه» الذي اكتفى دولجوروكوف بأن شد على يده بتأدب دون أن يوجّه إليه كلمة، لكنه لم يلبث أن وهنت عزائمه أمام رغبته الملحة في الإعراب عما يجيش في صدره، فالتفت إلى الأمير أندريه وقال له بالفرنسية بلهجة عنيفة متهدجة: أه يا عزيزي! يا لها من معركة تلك التي شَنَّناها منذ حين! عسى أن يريد الله أن تكون المعركة التي ستنشأ عنها قريبًا مكلفة بالظفر! أتدري يا عزيزي أنني كنت مؤيّدًا مشرفًا للنمساويين، وخصوصًا فيروز؟ يا للدقة! يا للإحكام! يا للمعرفة التامة بالأرض! ويا للخبرة المستنيقة بكل الإمكانيات! بل يا للعلم المفرط بكل التفاصيل! صدقني يا عزيزي، إنه لا يمكن أن يتصور المرء مناسبة أكثر ملاءمة من التي نحن في صدرها، لقد اجتمعت الشجاعة الروسية بالدقة والإحكام النمساويين، فماذا تريد خيرًا من ذلك؟!

فسأله بولكونسكي: إذن فقد تقرر الهجوم بالفعل؟
فأجاب دولجوروكوف بابتسامة هازئة: وخسر بونابرته (تسمية ساخرة لبونابرت) كل شيء، هل تعرف أن الإمبراطور قد تلقى أخيرًا رسالة منه؟

— حقًا! وماذا جاء فيها؟

— ماذا تريده أن يكتب؟ ترهات بقصد كسب الوقت. إننا نتحكم الآن في مقدراته، ثِقْ بقولي.

ثم أضاف ضاحكًا بطيبة قلب: غير أنَّ ما يثير الفضول في الموضوع هو أن أحدًا حتى الآن لم يوفق في تدبيح الجواب على تلك الرسالة بسبب العنوان، إِنَّ النِّيَّةَ منصرفة إلى عدم استعمال كلمة «قنصل»،^٢ فكيف بكلمة «إمبراطور»!
ولقد اقترحت أن يرسل الجواب باسم «الجنرال بونابرت»!
فقال بولكونسكي: اسمح لي، يجوز أَلَّا يُعترف به كإمبراطور، ولكن تسميته «بالجنرال بونابرته»!

فقاطعه دولجوروكوف ضاحكًا: تمامًا، وقد أصبح الأمر أكثر تسلية. إنك تعرف بيليبيين ولا شك، أليس كذلك؟ حسنًا، لقد اقترح هذا الساخر الصامت أن نُعْنون الرسالة إلى «المعتدي عدو الجنس البشري»!

واستغرق دولجوروكوف في قهقهة مدوية، سأله بولكونسكي: أهذا كل شيء؟
- كلاً، لقد أوجد بيليبيين أخيرًا اللقب المناسب، إن هذا الساخر يتمتع كذلك بذكاء المعني.

- وماذا كان ذلك اللقب؟

فقال دولجوروكوف بلهجة جدية رزينة: إلى رئيس الدولة الفرنسية، أليس لك مخرج لهذه الورطة؟

فأجاب بولكونسكي: رائع! ولكنه لن يروق له.

- بل على العكس، إنَّ أخي يعرفه، نعم إنه يعرف ذلك الإمبراطور المرتجل، لقد تناول الطعام معه مرة في باريس، وأنبأني بأن لم يرَ في حياته دبلوماسيًا أريبًا داهية مثله، لقد اجتمع فيه الدأب الإيطالي بالرقعة الفرنسية، هل تعرف الأقاصيص التي تشاع حول علاقاته بالكونت ماركوف؛ الرجل الوحيد الذي عرف كيف يتصرف معه بجدارة وحق؟ هل تعرف قصة المنديل مثلًا؟ إنها رائعة.

وراح دولجوروكوف يتبسط في سرد الأحداث ملتفتًا تارةً إلى بولكونسكي وأخرى إلى بوريس، قال إن بونابرت كان مرة مع سفيرنا ماركوف في مقابلة رسمية، فأراد أن يختبره ليعرف قيمه الشخصية.

^٢ المعروف أن بونابرت سَمَّى نفسه قنصلًا عامًا لفرنسا قبل أن يصبح إمبراطورًا لها؛ وهو الأمر الذي ما كان أعداؤه يعترفون به رسميًا. (المترجم)

وبينما هما واقفان، ترك بونابرت منديله يسقط على الأرض، وراح ينظر إلى الكونت ماركوف نظرات ملؤها الأمل في أن يبادر هذا إلى التقاط المنديل وإعادته إليه، فما كان من سفيرنا إلا أن ألقى منديله بجانب منديل بونابرت وانحنى فالتقطه دون أن يحس منديل هذا الأخير.

قال بولكونسكي: رائع! ولكن اسمح لي يا أميري، لقد جئتُك ملتَمِسًا أمرًا، إنه يتعلق بهذا الشاب الذي ...

لم يتم حديثه؛ ذلك أن أحد الضباط المساعدين جاء يسأل عن دولجوروكوف ليسأله المثل بين يدي الإمبراطور.

قال الأمير وهو ينهض بنشاط، ويضغط على يدي بولكونسكي وبوريس مصافحًا: آه، يا لها من مضايقة! كنت سأكون سعيدًا بتلبية كل رغباتك يا أمير في كل ما يتعلق بك وبهذا الشاب الجميل، وإنك تعرف حقيقة مشاعري نحوك.

وعاد يضغط على يديهما، ويخص بوريس بابتسامة مرحبة لم يكن الإخلاص فيها إلا طلاءً ظاهريًا، وأردف: لكنك ترى بنفسك ... فإلى المرة القادمة.

كانت مجاورة بوريس للسلطة العليا تحرك مشاعره بانفعال، كان يشعر في قرارة نفسه أنه في تلك اللحظة قريب من تلك السلطة التي تستطيع تحريك الكتلة الهائلة من البشر التي كان في عدادها صباح ذلك اليوم، والذي لم يكن فيها إلا ذرة طيعة سلسة القيادة، تبع مع بولكونسكي الممشى الذي سار فيه دولجوروكوف، وعندما بلغا مكتب الإمبراطور الذي دخل إليه المساعد العام، التقيا برجل قصير القامة في ثوب مدني ذي ذقن ناتئة، تضي على مظهره لونًا من الحيوية الماكرة دون أن تُكسب وجهه بشاعة، كان خارجًا من حضرة الإمبراطور، شاهدًا ذلك الرجل يومئ برأسه للأمير دولجوروكوف وكأنه من معارفه، ثم يصبو إلى بولكونسكي نظرة باردة منتظرة، ولا شك، أن يبادره هذا بالتحية أو يتنحى عن طريقه، لكن بولكونسكي خيب أمله، وعبس وقطب حاجبيه؛ مما جعل ذلك المدني يستدير متابعًا طريقه.

سأل بوريس: من هذا؟

— إنه من أكثر الرجال رفعة في المركز وخطورة في الدولة، لكنه من أشدهم مقتًا في نفسي، إنه الأمير آدم تزارتوريسكي وزير الخارجية، إن أمثال هذا الرجل يقررون مصير الشعوب.

وبينما كانا خارجين من القصر، ندَّت عن صدر بولكونسكي زفرة عميقة لم يستطع
كتمانها.

وفي اليوم التالي، زحفت الجيوش، ولما لم يستطع بوريس لقاء بولكونسكي أو
دولجوروكوف قبل معركة أوسترليتز، فإن بقاءه في فيلق «إسماعيل» كان يمضُّه ويضُنِّيه.

الفصل العاشر

أفراح النصر

في فجر اليوم السادس عشر من تشرين الثاني، بارح نيكولا روستوف الذي كان في عداد كوكبة الفرسان التي يقودها دينيسوف والمربوطة بجيش باجراسيون، الثكنة مع كوكبته للدخول في العمليات المدبرة، أو على الأقل هذا ما كان يشاع حينذاك، ولكن لم تكد الفرقة تقطع ربع مرحلة حتى صدر إليها الأمر بالتوقف حيث هي على الطريق، رأى روستوف الجنود القوقاز يمرون أمامه، ثم الكوكبتين الأولى والثانية للفرسان، ففيالق كاملة من المشاة مصحوبة بعدد من المدافع، وأخيرًا الجنرالان باجراسيون ودولجوروكوف يتبعهما الضباط المساعدون، وفي تلك المرة أيضًا، بذل روستوف — الذي شعر بالخوف يتسرب إلى نفسه — جهدًا جبّارًا للتغلب على مخاوفه، لقد حلم للمرة الثانية في أن يتصرف تصرف الأبطال؛ تصرف الفرسان الحقيقيين، لكن حلمه تبدد؛ لأن كوكبته تُركت لتكون في عداد الاحتياطي من الجيوش؛ لذلك فقد قضى سحابة يومه في قلق واكتئاب عميق.

وفي الساعة التاسعة، ترامى إلى سمعه صوت طلقات نارية حامية أعقبها هتاف مدوّ، ولم تلبث أن مرت مراكب الجرحى عائدة إلى الصفوف الخلفية، وفي أعقابها كوكبة من القوقاز تعدادها مائة فارس، تحيط بحشد من الفرسان الفرنسيين الأسرى، وبدأ أن المسألة قد انتهت نهاية سعيدة تتناسب مع أهميتها، كان العائدون إلى الصفوف الخلفية ينبئون زملاءهم بأخبار الانتصارات الرائعة التي أحرزتها القوات الروسية التي احتلت ويسشو، وأسرت كوكبة كاملة من الفرسان، وكان الصقيع الذي كسا الأرض خلال الليل بدثاره اللامع ينعكس بريقه تحت إشعاع شمس الخريف الخابية، فيزيد في ضياء ذلك الإصباح الجميل متناسقًا مع النصر السعيد الذي أحرزته القوات الروسية، والذي لم تقتصر الروايات وحدها على تمجيده، بل أعرب عنه كذلك كافة الوجوه؛ وجوه الجنود والضباط والجنرالات التي كانت تفيض بشرًا وحبورًا كلما خطر أصحابها تحت أبصار

روستوف الملتاع. وإزاء تلك المظاهرة البراقة المُغْرِية، ازدادت نفس نيكولا اكتئابًا وغمًا، واشتد سخطه لقضائه يومًا آخر في جمود مزعج وهو الذي كان يُتَوَقَّع للقتال. هتف دينيسوف يحدّثه: تعالَ يا روستوف نُغرق أحزاننا في الخمر. وكان دينيسوف مقيمًا على جانب الطريق، وأمامه إناءٌ وبعض الأرزاق. راح ضباط الكوكبة يشكّلون حلقةً حول صندوق دينيسوف الحافل بالأرزاق، يتبادلون الحديث وهم يتناولون طعام الإفطار. هتف أحدهم مشيرًا إلى أحد فرسان الدراجون الفرنسيين الذي كان يسير على قدميه بين اثنين من القوقازيين: هه، ها هو ذا آخر يعودون به من جديد. كان حصان الأسير، وهو حصان ضخم جميل التكوين، يسير في أعقاب صاحبه، وقد أمسك القوقازي بأعنته.

قال دينيسوف للقوقازي: هل تبيع الحصان يا هذا؟
- قد أبيعُه يا صاحب النبالة.

تهافت الضباط حول القوقازيين وأسيرهما، كان هذا الإلزامي الشاب، تكاد الدماء تنفجر من وجهه من شدة انفعاله، فلما سمع الضباط يتحدثون باللغة الفرنسية، راح يحدثهم بطلاقة واندفاع شديدين، متوجّهًا تارةً إلى هذا وأخرى إلى ذلك، معلنًا أنه لولا عناد العريف قائد مفرضته، لَمَا وقع في الأسر، قال إنه أخطر رئيسه مرارًا بأن الروسيين قد احتلُّوا المدينة، مع ذلك فإن ذاك أرسله للبحث عن لبد أُغفلت هناك، وكان بعد كل جملة يلاطف عنق جواده ويقول متوسلاً: لكن أرجو ألا تسيئوا إلى جوادي المسكين. كان يبدو على ذلك الرجل أنه لا يدري عن أمره شيئًا، فكان يعتذر أحيانًا لأنه استسلم وأُسِر، وأحيانًا أخرى يعتقد أنه في حضرة رؤسائه، فيتبجح أمامهم مبيّنًا غيرته ودأبه في الخدمة، وبفضله أمكن للقوات الروسية المرابطة في الصفوف الخلفية أن تفهم الجو الذي يعيش فيه الجيش الفرنسي بكل تفاصيله؛ ذلك الجو الذي لم تكن لديهم أية فكرة عن حقيقته. باع القوقازيان الحصان لقاء قطعتين ذهبيتين إلى روستوف الذي كان أكثر زملائه ثروة، فقال الأسير الإلزامي لروستوف الذي قبض على أعنة الحصان: أرجو ألا يعامل حصاني الصغير معاملة سيئة.

ابتسم روستوف، وطمأن الأسير، ثم أعطاه بعض المال، وهتف أحد القوقازيين بالأسير وهو يدفعه إلى الأمام: هيا، هيا، تقدم.
وفجأة صاح أحدهم: الإمبراطور، الإمبراطور!

هرع الجميع لهذا النداء، واستدار روستوف فوقعت أبصاره على بعض الفرسان القادمين وعلى قلنسواتهم الريش الأبيض. وفي طرفة عين، كان كلُّ في مكانه من الصف ينتظر القادمين.

مضى روستوف كذلك إلى مركزه، واعتلى صهوة جواده دون أن يشعر بما يفعل. تَبَدَّدَ أسفه العميق لعدم اشتراكه في المعركة، وتَبَخَّرَ اشمئزازه العنيف من اللفظ اليومي الوتير الذي كان يطالعه أبداً على تلك الوجوه المعروفة منه، وأصبح لا يشعر حتى في وجوده. لقد كان الفرخ الذي شمله عند سماعه بأن الإمبراطور بات قريباً منه يستأثر بكل اهتمامه. كان سعيداً كالعاشق الذي ينتظر لقاء حبيبته للمرة الأولى، مع ذلك فإنه لم يَنَسْ مقتضيات النظام الذي تَفرض عليه عدم الالتفات، لكنه لم يكن في حاجة للالتفاف ليعرف «أنه» اقترب، ولم يكن اقتراب الإمبراطور يُعلن بارتفاع أصوات سنايك الخيل وتقدُّمها فحسب، بل بالإشرافاة التي أحسَّ بها روستوف تغمر الجوّ والجلال الذي راح يستولي على النفوس، وكانت تلك الشمس التي أَضَفَت ذلك النور الرائع الهادئ تقترب تدريجياً وتلف روستوف بإشعاعاتها الدافئة المهددة، وتبينت أذنه ذلك الصوت الجليل الهادئ الدافئ البسيط، الذي راح يتعالى كلما ازداد صاحبه قرباً.

لم تخذع روستوف إحساساته؛ لأن سكوتاً مطبقاً شمل المكان فجأةً، وتردد صوت الإمبراطور يمزق ستره بقوله: فرسان بافلوجراد!

فأجابه صوتٌ بدا لسمع روستوف أن لهجته تدل على أن صاحبه ليس إلا من بني البشر بقدر ما كان الصوت الأول ملائكياً علوياً: الاحتياط من الفرقة يا صاحب الجلالة. توقف ألكسندر أمام روستوف الذي شعر أن وجهه أشدَّ جمالاً مما بدا له في الاستعراض العام قبل ثلاثة أيام، كان ذلك الوجه يطفح بالشباب والوداعة؛ شباب بريء، جعله يبدو — رغم جلاله وهيئته — أشبه بوجه وديع بهيٍّ لطفل في الرابعة عشرة من عمره، وبينما كان يجيل بصره في وجوه فرسان الكوكبة، التفت أنظاره فترة بأنظار روستوف وتوقفت برهة معها، فهل تراه فهم ما كان يجول في خاطره كما توقع روستوف؟ المهم أنه تأملَ حوالي ثانيتين بعينيهِ الزرقاوين اللتين ينبعث منهما نور حانٍ وديع، وفجأةً، رفع حاجبه وهمز جواده بمهمازه الأيسر، واستمر في طريقه هدباً.

تصامم الإمبراطور الشاب عن رجاء أتباعه وأفراد حاشيته، ولم ينجح في التخلي عن رغبته في المساهمة في الهجوم، حتى إنه حوالي الظهر، انفصل عن الصف الثالث من الجيش، وهرع إلى الصفوف الأولى، لكنه لم يكد يصل إلى حيث كان الفرسان منقضين على العدو حتى أبلغه ضباطه المساعدون نبأ النصر الذي أحرزوه.

كان ذلك النجاح، الذي لم يكن إلا أسر كوكبة فرسان فرنسية فحسب، قد رُسم للإمبراطور الشاب على لوحة تُظهره بمظهر النصر الرائع، حتى إن الإمبراطور والجيش كله — كما أشيع في حينه — ظنوا أن الفرنسيين قد دُحروا، وأنهم يتراجعون مرغمين، وكان الدخان الكثيف الذي غطى ساحة المعركة يكاد هو الآخر يثني على ذلك. ولم تمض دقائق على مرور الإمبراطور، حتى صدرت الأوامر للجيش الذي كان الاحتياطي من فرسان بافلوجراد تابعًا له بالحركة، وقد قُدر لروستوف أن يشاهد الإمبراطور مرة ثانية في مدينة ويسشو، وكانت بعض الجثث — جثث الجرحى والقتلى — لا زالت في مكانها في ساحة تلك المدينة التي لعل الرصاص فيها منذ حين خلال المعركة، لم تُرفع بعد. وكان الإمبراطور ممتطيًا صهوة جواد آخر غير ذلك الذي استعرض القطعات على صهوته، لكنه كان مولدًا أيضًا من أصل إنجليزي ومحجّل الأطراف، وكانت حاشية كبيرة تحيط به. كان منحنياً على جنبه حاملاً بيده عوينته الذهبية، ينظر إلى جندي مستلقٍ على صدره مخرج بالدماء التي تخضب رأسه وسترته. كان ذلك الجريح كرية المنظر منفّره، شديد القذارة؛ حتى إن روستوف شعر بألم شديد لوجود الإمبراطور بالقرب منه. اجتاحت قشعريرة ظاهرة كَتَفَي العاهل المحنّين قليلاً، فهمز جواده بعصبية بساقه اليسرى، غير أن الفرس المظهمة المدربة تدريباً ممتازاً، لَوَتْ عنقها بشيء من اللامبالاة، ولم تتقدّم خطوة واحدة، وكان روستوف يراقب كل حركات الإمبراطور حتى أتفها شأناً. وأخيراً، ترجل أحد الضباط المساعدين، فحمل الجريح من تحت إبطيه، ووضعه على نقالة جيء بها في تلك اللحظة، فأطلق الجريح زمجرةً.

وقال الإمبراطور الذي كان يتنفس بصعوبة أكثر من المحتصر نفسه: رويدكما، احملاه بلطف، ألا يمكن نقله بعناية أكثر وهدوء أشد؟!

شاهد روستوف الدموع تملأ عيني مليكه، وسمعه يقول لكزاركوريسكي وهو يبتعد: يا لها من أمر مروّع هذه الحرب! يا لها من أمر مريع!

كانت مقدمة الجيش تحتلّ مراكزها خارج المدينة تلقاء العدو الذي ما فتئ إزاء أحقر هجوم، ويتخلى عن مساحات من الأرض. أعرب الإمبراطور عن شكره للقطعات المحاربة ووعد بمكافآت، وفي ذلك النهار وُزعت على الجنود جراية مضاعفة من العرق، كانت نيران المعسكرات أكثر بهجة في تلك الليالي عن الليالي السابقة، وكذلك أغنيات الجنود فإنها كانت أشد حماسة، واحتفل دينيسوف تلك الليلة بترقيته إلى رتبة ماجور. وقبل نهاية الحفل، رفع روستوف يده بقدحه وكان قد ثمل لكثرة ما عب من شراب، واقترح

أن يشربوا نخب الإمبراطور. قال مفسرًا: أصغوا إليّ لتفقهوا غايتي، إنني لا أقترح أن نشرب نخب «صحة الإمبراطور» كما درجت عليه العادة في الحفلات الرسمية، بل أطلب أن نشرب نخب الإمبراطور ألكسندر، الرجل الطيب الفتان الرائع، نخب صحته إذن، نخب انتصارنا على الفرنسيين، إنَّ النصر أكيد أيها السادة، فنحن الذين حاربنا ببسالة من قبل، وطوّحنا بالفرنسيين في شوينجرابن، ماذا يكون موقفنا اليوم والإمبراطور على رأسنا؟ سوف نموت جميعًا وبسرور بالغ، أليس كذلك أيها السادة؟ لعلني لم أنجح في التعبير عن شعوري وعواطفي كما يجب، لكنني أُوْجِزْتُ في ذكر إحساساتي وإحساساتكم أيضًا، فاشربوا نخب صحة ألكسندر الأول، هورًا!

وردَّدَت الحناجر صيحة هورًا، حتى إنَّ الرئيس العجوز كيرستن أودع في تلك الصيحة من الحماس الساذج مثل ما أودعها روستوف.

وبعد أنْ أفرغ الضباط أقداحهم وحطموها، ملأ كيرستن أقداحًا أخرى، حمل كأسه وراح يلوِّح بها، وتقدَّم — وهو في قميصه الأبيض — إلى حيث يعسكر الجنود، وتوقف أمامهم وقفة جليلة قريبًا من المعسكر، وشارباه الأشهبان الطويلان، وصدرة الأبيض البارز خلال فتحة قميصه، بارزة واضحة تحت أضواء النيران.

هتف بصوته الأَجَش الخاطر، صوت الفارس العجوز المحنك: هيا أيها الفتيان، اشربوا نخب صحة جلالة الإمبراطور، ونخب انتصارنا على العدو! هورًا!

والتفتت الفرسان حوله، وراحوا يرددون بأصواتهم القوية هتافاته المدوية: هورًا! وفي ساعة متأخرة من الليل، حان وقت الانفصال، فربَّت دينيسوف بيده الصغيرة على كتف روستوف صفيه وقال: إذن، إنك لم تجد من تتعلق به في السرية، فانصرفت إلى عشق الإمبراطور!

— آه يا دينيسوف! لا تمزح هكذا، إنه شعور جميل رفيع شديد التسامي شديد ...

— لا شك، لا شك، وإنني أشاطرك هذا الشعور وأؤيده.

— كلاً، بل إنك لا تفهمني.

ونهب روستوف وراح تيّأهاً بين المعسكرات، يحلم في السعادة التي ينشدها في الموت ليس في سبيل إنقاذ حياة الإمبراطور، التي كان يؤمن أنه غير جدير في نيل شرف إنقاذها، بل في الموت تحت أبصاره. كان مأخوذاً بملكه وبعظمة الجيوش الروسية، يسمو ويحلّق مع الأمل في إحراز نصر قريب، ولم يكن روستوف وحده يحس هذا الإحساس في تلك الأيام الخالدة التي سبقت معركة أوسترليتز، بل إنَّ تسعة أعشار الجنود على الأقل كانوا مثله مأخوذين بروعة شخصية ملكهم وبعظمة الجيوش الروسية.

الفصل الحادي عشر

مفاوضات فاشلة

أقام ألكسندر في اليوم الثاني في مدينة فيسشو، وأمر باستدعاء طبيب جلالته المرافق فيلبير، فشاع خبر الوعكة الصحية التي ألمت بالإمبراطور في القيادة العامة وبين الوحدات القريبة من المكان، كان خُلص العاهل الروسي يزعمون أن روحه الحساسة المرهقة تأثرت بمشاهد القتلى والجرحى، فضعفت شهيته إلى الطعام، وأمضى ليلة شديدة الإزعاج.

وفي فجر اليوم السابع عشر،^١ تقدّم ضابط فرنسي، يحميه علم أبيض، إلى الخطوط الروسية الأمامية، وطلب مقابلة الإمبراطور، فنُقل إلى فيسشو. ولما كان الإمبراطور نائماً، فقد اضطر ذلك الضابط الذي لم يكن إلا سفاري،^٢ أن ينتظر حتى يستيقظ جلالته. وحوالي الظهر، مَثَّل بين يدي الإمبراطور حيث لبث ساعة كاملة، خرج بعدها يصحبه الأمير دولجوروكوف، وسرت بين الصفوف شائعة مفادها أن نابليون أرسل يلمس مقابلة الإمبراطور ألكسندر الذي رفض الذهاب بنفسه، وأناب عنه الأمير دولجوروكوف، المنتصر في معركة فيسشو؛ ليبحت مع نابليون في شئون السلام إذا رغب هذا، خلافاً لما كان يُنتظر منه، وقد قوبل رفض العاهل ألكسندر من قبل الجنود بسرور بالغ، وأثار في الجيش روح الكرامة والاعتداد.

^١ ينبغي ألا يغرب عن البال أن التقويم الروسي تقويم شرقي، وهو يتأخر عن التقويم الميلادي الغربي بثلاثة عشر يوماً؛ لذلك إذا شاء القراء تتبّع هذه الحوادث حسب التقويم الشائع عندنا، فعليهم أن يضيفوا هذا الفرق، وعلى هذا الأساس فإن السابع عشر من تشرين الثاني حسب التقويم الشرقي يوافق الثلاثين منه عندنا وهكذا ... (المترجم)

^٢ رونه سافاري، دوق دو روفيجو، جنرال فرنسي وُلد عام ١٧٧٤ وتوفي عام ١٨٣٣، ظهرت مواهبه في معركة أوسترولنكا، وتقلّد منصب وزير البوليس في عهد بوناپرت. (المترجم)

وحوالي المساء، عاد دولجوروكوف، فمضى قُدماً إلى مكتب الإمبراطور؛ حيث لبث في حضرته على انفراد وقتاً طويلاً.

وفي يومي ١٨ و ١٩ (أي ١ و ٢ كانون الأول كما أسلفنا) ظَلَّت الوحدات الروسية تتقدم والخطوط الأمامية للعدو تتراجع إثر مناوشات بسيطة تافهة، غير أن حركة كبيرة دُبَّت في الصفوف اعتباراً من بعد ظهر يوم ١٩ (٢/١٢/١٨٠٥)، حركة هائلة بلغت في مداها إلى أعلى مراتب الجيش، واستمرت دائبة حتى صباح يوم ٢٠ تشرين الثاني؛ وهو اليوم الذي وقعت فيه معركة أوسترليتز التاريخية^٢ الخالدة.

كانت الحركة الصاخبة والأحاديث الحارّة والسعي الدائب، ومهام الضباط المساعدين، محصورةً كلها حتى ذلك اليوم بين حدود مركز القيادة العامة الإمبراطورية. أما في يوم ١٩ تشرين الثاني، فقد تعدّت الحركة تلك الحدود، فبلغت مركز قيادة كوتوزوف ومركز أركان حرب قوَّاد الكتائب والوحدات. ولم يحلّ المساء إلا وكانت الصفوف كلها في شغل شاغل بفضل مساعي الضباط التابعين. وفي ليل ١٩-٢٠ تشرين الثاني، اهتزت الكتلة الهائلة التي كان قوامها ثمانين ألف رجل، والتي كانت تنبسط على جبهة طولها يناهز العشرة كيلومترات.

كانت الحركة المركزية التي بدأت ذلك الصباح من مركز القيادة الإمبراطوري، والتي دُبَّ بسببها النشاط في كل القطاعات، تُدْكَرُ المرء بالعجلة المحركة التابعة لساعة جبارة كبيرة. بدأت إحدى العجلات تدور ببطء، ثم أعقبتها ثمانية فالثالثة، ولم تلبث حتى استجابت لها المشابك والعجلات الفرعية وما إليها، فراحت تهتز بدورها، تزداد مشيتها سرعةً دقيقةً بعد دقيقة، فيدوي الجرس وتتحرك التماثيل الصغيرة، وتتقدم الإبر بانتظام إلى الأمام كما هي النتيجة المحتومة للعملية كلها.

كذلك كانت الآلة العسكرية تشبه آلة الساعة في كل شيء، حتى في الغاية، فإذا ما قامت الحركة الأولى، لبثت كل الآلات الأخرى جامدة حتى يصل إليها النشاط الدوري

^٢ Austerlitz مدينة في مورافيا، اسمها بالتشيكية: سلافكوف. هُزم نابليون النمساويين والروس فيها يوم ٢/١٢/١٨٠٥ هزيمة منكرة، وقد ظل ذلك الانتصار أروع نصر حصل عليه نابليون في حياته العسكرية، حتى ظل ذكر تلك المعركة يواكب اسم نابليون حتى اليوم. ومما يروى عنها، أن نابليون صاح بجنوده صبيحة يوم معركة موسكوبا التي وقعت عام ١٨١٢: «أيها الجنود، إنها شمس أوسترليتز!» وقد سُميت تلك المعركة أيضاً بمعركة الأباطرة الثلاث. (المترجم)

الرتيب، فتصر العجلات على الحوامل، وتتشابك أسنانها، وتتحرك المشابك بفعل السرعة والروتين، بينما تظل العجلة المجاورة ساكنة بانتظار دورها في الحركة، وكأنها تستطيع البقاء في سكونها وجمودها مئات السنين، ولكن عندما تحين اللحظة المواتية، وتشتبك أطرافها في مخلبٍ مشرشر مدبب، تخضع لنظام الحركة فوراً، فتدور ويرتفع صريرها هي الأخرى متماشية مع الحركة العمومية، التي تبقى النتائج المرجوة مجهولة منها.

وكما أنَّ الحركة المعقدة في الساعة لا تنتهي إلا بانتقال الإبرة المشيرة إلى الوقت من مكانها على الميناء ببطء وانتظام، فإن النشاط الذي دبَّ في أعصاب مائة وستين ألف رجل بين روسي وفرنسي، واصطدام تلك الرغبات واختلاط تلك الشهوات، والحسرات والمخاوف والآلام، وبوادر الكبرياء والذعر والحماس؛ لم يكن لها من نتيجة إلا خسارة معركة أوسترليتز بالنسبة إلى أحد الجانبين المتحاربين؛ تلك المعركة التي أطلق عليها اسم معركة الأباطرة الثلاثة: إمبراطور روسيا والنمسا وفرنسا؛ وبمعنى أصح، لقد كانت حركة إبرة التاريخ العام على ميناء تاريخ الإنسانية.

كان الأمير أندريه في الخدمة ذلك اليوم، فلم يفارق الجنرال الأعلى كوتوزوف لحظة واحدة. وفي الساعة السادسة مساءً، وصل كوتوزوف إلى مقر القيادة الإمبراطورية، وبعد لقاء قصير مع الإمبراطور، قصد إلى الكونت تولستوي، الذي كان ماريشال البلاط الأكبر. شعر بولكونسكي أن كوتوزوف لم يكن على ما يرام، بل إنه لاحظ عليه الاغتمام والاستفزاز اللذين كان مردهما الاستقبال الفاتر الذي قُوبل به من قبل السادة أعضاء الحاشية في القيادة العامة، واللجة التي يخاطبونه بها، والتي توحى بأنهم يعرفون أشياء مجهلة للآخرين. وأراد بولكونسكي معرفة كلمة السر في هذه المعضلة، فمضى إلى دولجوروكوف منتهزاً فرصة الفراغ القصير الذي عرض له أثناء مقابلة كوتوزوف للكونت تولستوي.

قال له الأمير، وكان يتناول الشاي مع بيليبين: إه! مرحباً يا عزيزي، نعم إن غداً موعد العيد، ترى ماذا يقول عجوزك؟ إنه ليس حسن المزاج أليس كذلك؟
- ليس الأمر مقتصرًا على مسألة مزاج، إنني أعتقد أن الجنرال يطلب أن يُصغى إلى ما يقول.

- لقد أصغينا إليه عندما انعقد المجلس الحربي، وسوف نصغي إليه كلما عزم على التحدث بتعقل، أما أن نتمهل في حين أن بونابرت لا يخشى شيئاً مثل خوفه من معركة عامة لتُشن على قواته، فذلك مستحيل.

- صحيح، بمناسبة الحديث عن بونابرت، حدّثني عن انطباعاتك، لقد رأيته وتحدثت معه، ماذا وجدت فيه؟

– لقد رأيته واستخلصت من تلك المواجهة أنه ما من شيء يخيفه أكثر من معركة عامة تُشنُّ عليه.

كرّر دولجوروكوف هذا القول وهو شديد الفخار؛ إذ استطاع استخلاص ذلك الرأي. أردف يقول: لو أنه لم يكن خائفاً من المعركة، فلماذا أثار هذه المباحثات، ورغب في المفاوضة؟ ثم لماذا يتراجع باستمرار، وهو الذي عُرف عنه أن التراجع ليس في برامجه؟ صدّقني إنه خائف، إنه يخاف المعركة العامة، لقد دقت ساعته أؤكد لك، فتق في قولي. لكن بولكونسكي ألح يسأله: لكن حَبْرني، كيف وجدته؟

– إنه رجل يرتدي «الروندجوت» الرمادي، ويرغب من كل قلبه أن يناديه الناس بـ «يا صاحب الجلالة»، لكنني – لشديد حزنه واكتئابه – لم أطلق عليه أي لقب، هذا هو الرجل ولا شيء أكثر من هذا.

وابتسم دولجوروكوف لبليبين ابتسامة شيقة، وأردف: إنني مع مزيد احترامي لكوتوزوف العجوز، أعتقد أننا لو تمهّلنا وترددنا، فإننا نعطي فرصة كبيرة لنا بليون تمكّنه من الإفلات، وبذلك نكون من أكرم المحسنين! إنه الآن بين أيدينا، لا تنس مبدأ سوفوروف العتيد: «لا تسمح لخصمك بمهاجمتك، بل كن أنت المهاجم»، صدقني يا عزيزي إن حيوية الشباب في الحرب تمتاز ببعد نظر يفوق خبرة المخضرمين العجائز.

فقال بولكونسكي معترضاً على نظرية دولجوروكوف، راجياً أن تتاح له في هذه المناسبة فرصة عرض خطته الشخصية التي وضّعها لذلك الهجوم: ولكن في أي اتجاه سنهاجم، وعلى أية وضعية؟ لقد ذهبْتُ بنفسي منذ حين إلى خطوطنا الأمامية، وتأكدت من استحالة تحديد مركز قواته الرئيسية.

فأجابه الأمير وهو ينهض واقفاً، ويبسط خريطة على المائدة: وماذا يهم ذلك إذا كانت في برونو؟

وراح دولجوروكوف يشرح بسرعة وبوضوح حركة الالتفاف التي وضع خطوطها فيروذر.

شرح بولكونسكي اعتراضاته، وعرض خطته الشخصية التي كانت تبدو في مثل قيمة الخطط التي وضعها فيروذر، مع فارق واحد في غير صفه، وهو أنها جاءت متأخرة، ومنذ أن حاول إبراز محاسن خطته ومساوئ الأخرى، توقف دولجوروكوف عن الإصغاء إليه، فلم يعد يلقي إليه إلا بنظرة ساهمة دون أن ينظر إلى شروحه على الخريطة. وأخيراً قال له: حسناً، سيقام هذا المساء مجلسٌ حربي في مكتب كوتوزوف، وبإمكانك الدفاع عن وجهة نظرك هناك.

فقال بولكونسكي وهو يبتعد عن الخريطة: وهذا ما أنوي عمله.
وهنا تدخل بيليبيّن الذي ظل صامتًا حتى تلك اللحظة، ينظر إلى المتحدثين بهدوء مترقبًا الفرصة الملائمة للإلقاء بإحدى كلماته المأثورة: ماذا يفيدكم مثل هذا القلق الذي تسومونه أنفسكم أيها السادة؟! سواء جاءنا الغد بالهزيمة أو بالنصر، فإن عظمة الجيوش الروسية لا يمكن أن تُمس، إننا إذا استثنينا كوتوزوف، فإننا لن نجد قادة روسيين على رأس جيوشنا، إن القواد هم كالتالي: هر جنرال ويمبفن، الكونت دولانجيرون، الأمير دوليشتنشتاين، الأمير دو هوهنلوه، وأخيرًا برشد ... برشد ... وهلم جرًا، كما هو حال كل الأسماء البولانية.

فصاح به دولجوروكوف: اصمت يا لسان السوء! ثم إن هذا غير صحيح؛ فهناك قائدان روسيان هما ميلورادوفيتش ودوختوروف، وكان يمكن أن يكون هناك ثالث أيضًا؛ وهو أراكتشيف لكن أعصابه ضعيفة قليلًا.

قال بولكونسكي: أعتقد أن مقابلة ميخائيل لاريونوفيتش قد بلغت نهايتها، فإلى اللقاء أيها السادة، وحظًا سعيدًا.

وصافحهما وخرج.

وبينما كان عائدًا بصحبة كوتوزوف إلى مقر القيادة العامة دون أن ينطق هذا بكلمة، لم يستطع كبح جماح نفسه، فألقى عليه سؤالاً ينشد رأيه في معركة صبيحة الغد. فحده كوتوزوف بنظرة صارمة، وأجابه بعد لحظة صمت: إنني أعتقد أننا سنخسر المعركة، وهذا ما قلته للكونت تولستوي راجيًا أن يُبلغ الإمبراطور رأيي، فهل تُعرف ماذا كان جوابه؟ لقد قال لي: «إيه يا عزيزي الجنرال، إنني لا أهتم إلا بالرز والضلع المحشي، فاهتموا أنتم بالحرب»، نعم هذا هو الجواب الذي حصلتُ عليه منه!

الفصل الثاني عشر

اجتماع القادة

انتقل فيروذر حوالي الساعة العاشرة مساءً إلى مسكن كوتوزوف، حاملاً معه أوراقه ومخططاته؛ حيث كان مقرراً أن يعقد هناك جلسة أخيرة مع قُواد الجيوش قبل الشروع في المعركة، ولقد دُعي إلى ذلك الاجتماع كلُّ القواد، فحضرُوا باستثناء الأمير باجراسيون. كان فيروذر — وهو صاحب الخطة التي ستسير على هداها المعركة المقبلة — على نقيض كوتوزوف من حيث المظهر والمزاج؛ كان الأول شديد الحماس والاندفاع على نقيض كوتوزوف العابس المتشائم، الذي كان يقوم بدور الحَكَم، ومدير الجلسة رغم نفوره من تلك المهمة، وكان من الواضح أن فيروذر كان يشعر بأنه يرأس عملية من أخطر العمليات وأوسعها، كان أشبه بالحصان الذي ينحدر من علٍ، لا فرق لديه بين أن يكون هناك مَنْ يدفعه، أو أن يكون مدفوعاً بثقل عربة يجرُّها وراءه، بل إن همه كله كان محصوراً في الانحدار، وتخطي المسافة بسرعة، بصرف النظر عما يمكن أن يكون فيها من أخايد وحُفر قد تُورِدُه مورد الهلاك بسبب سرعته الجنونية. مضى ذلك المساء مرتين يتفقد شخصياً مراكز الجيش الأمامية؛ عله يستكشف مواقع العدو، وفي كل مرة، كان يقدِّم لكلٍّ من الإمبراطورين تقريراً ضافياً، ثم مضى بعد ذلك إلى مكتبه؛ حيث عكف على وضع خطته باللغة الألمانية، فلما بلغ إلى مسكن كوتوزوف لِعقد المؤتمر الأخير، كان يقف على قدميه بصعوبة لفرط تعبهِ وحاجته إلى الراحة. لقد كان مشغولَ الفكر لدرجة أنسَتْهُ واجبَ الاحترام حيال الجبراليسيم. لقد كان يقاطعه، ويتحدث بسرعة وبشكل غير واضح دون أن ينظر إليه، أو أن يجيب على الأسئلة الموجهة إليه، لقد كانت الأحوال تغطي ثوبه، وكان مظهره يوحي بشرود ذهنه ونفاذ جَلده، مع ذلك فقد كان ممتلئاً اعتدالاً واستعداداً وتجهماً.

كان كوتوزوف يَشغل قصرًا صغيرًا بجوار أوسترا لتز، وكان الضباط المدعوون إلى ذلك المجلس العسكري مجتمعين في البهو الكبير يتناولون الشاي، وكان المجتمعون ينتظرون وصول الأمير باجراسيون لَتُفتح الجلسة، ولم تنقُص دقائق بعد الساعة السابعة، حتى وفد أحد ضباط باجراسيون يقدِّم اعتذارات الأمير لعجزه عن حضور الاجتماع، وحمل الأمير أندريه اعتذارات باجراسيون إلى القائد الأعلى كوتوزوف، واستغلَّ فرصة وجوده في البهو لحضور اجتماع القادة مستندًا إلى رغبة كوتوزوف بالذات في إبقائه بقربه.

قال فيروزر وهو ينهض، وكأنه آلة تدفعها قوة رافعة: بما أنَّ الأمير باجراسيون لن يستطيع حضور الاجتماع، فإننا نستطيع البدء فيما نحن بصدده.

واقترَب من المائدة وبَسَطَ فوقها خريطة ضخمة تبين ضواحي برونو بتفصيل دقيق. كان كوتوزوف، ذو العنق الضخم البارز خلال فتحة الثوب العسكري، جالسًا على مقعد من طراز «فولتير»، ويداه السمينتان مرتكزتان على ذراعيه في وضع متناسق، وكان النعاس يداعب عينيه، فلما علا صوت فيروزر، فتح عينه الوحيدة بعناء وقال: نعم، نعم، لا شك أنَّ الوقت متأخر.

وأوما برأسه دلالة على الموافقة، ثم عاد يغمض عينيه، ويترك رأسه يسقط على صدره.

ولو أنَّ أعضاء المؤتمر العسكري اعتقدوا للوهلة الأولى أنَّ كوتوزوف يتظاهر بالنوم استخفافًا بما يدور، فإنَّ شخيره الذي علا بعد لحظات بددَ الظنون والريب، وأكد أنَّ الجنراليسيم لم يكن يتعمد إظهار الاحتقار بما يدور، أو بالخطأ الموضوعة أو بأي شيء آخر، بل إنه كان يُرضي حاجة قاهرة غريزية في النفس البشرية؛ وأعني النوم الذي كان في نظره لا يقل أهمية وخطورة عما هو بصدده، لقد كان نائمًا تمامًا، فألقى فيروزر نظرة على كوتوزوف ليتأكد من أنه نائم فعلاً، ثم أتى بحركة تُشعر أنه لا يستطيع إضاعة دقيقة واحدة في أمر خارج عن موضوع الخطأ، وأخذ ورقة راح يقرأ ما فيها بصوت رتيب قوي، تفاصيل الخطأ العتيدة، دون أن ينوه إلى أي فضل أو مساعدة لزملائه.

كانت الورقة مُعَنونة كالآتي: «خطة الهجوم على موقع العدو وراء كوبيلينتز وسوكولينتز في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٠٥».

وكانت الخطأ شديدة التعقيد صعبة الفهم تبدأ كالآتي: «لما كان العدو يرتكز بجناحه الأيسر على هضبة حرش، ويمتد بجناحه الأيمن على طول كوبيلينتز وسوكولينتز، وراء المستنقعات الموجودة هناك، وكنا نحن على العكس، نتجاوز بجناحنا الأيسر امتداد

جناحه الأيمن تجاوزًا كبيرًا، فمن الأرجح بالنسبة إلينا أن نهاجم جناح العدو الأيمن، خصوصًا إذا احتلنا القريتين: سوكولينتز وكوبيلينتز؛ الأمر الذي سيسمح لنا الانقضاض على جانب العدو ومطاردته في السهل بين شلاباينتز وغابة توارس، متحاشين بذلك قوات شلاباينتز نفسها والقوات العسكرية في بلوتيز، التي تغطي جبهة العدو، وللوصول إلى هذا الهدف النهائي، من الضروري ... إلخ، تمشي الفرقة الأولى، وتمشي الفرقة الثانية ... إلخ.»

كان الجنرالات غير مبتهجين لسماع تلك الجمل المركبة المعقدة، فالجنرال بوكسوفدن — وهو طويل القامة أشقر اللون — كان واقفًا قرب الجدار يحرق في شمعة، وكأنه لا يصغي أو حتى لا يُريد أن يُعتقد أنه يصغي إلى ذلك الشرح، والجنرال ميلورادوفيتش — وهو أحمر الوجه ضخم الشاربين معقوفهما متهدل الكتفين — جالس قبالة فيروذر جلسة عسكرية مهيبة، ويداه على ركبتيه ومرفقاه إلى الجانبين، يحرق في وجه بعينين شاخصتين، وهو صامت بعناد واضح. ولما انتهى رئيس الأركان النمساوي من تلاوة التفاصيل، نقل ميلورادوفيتش نظره بين زملائه، غير أن أحدًا منهم لم يستطع أن يتبين شيئًا في تلك النظرة المفعمة بالخطورة، أو أن يخمن لونها: أهي تحمل معنى الموافقة على الخطة أو الاعتراض عليها. وكان الكونت دولانجيرون — الجالس إلى جانب فيروذر مباشرة — يتأمل أصابعه الطويلة الأنيقة التي كانت تداعب علبة السعوط الذهبية ذات الصورة اليدوية التي تزين غطاءها، وكانت الابتسامة مطلة على وجهه الفرنسي الذي يشهد بأنه من أهل الجنوب، والعلبة الأنيقة ترسم حلقات مركزية بين أصابعه. وفي أحد المواقف الدقيقة الشديدة التعقيد، أوقف حركة علبته الرتيبة ونصب رأسه، ثم انفرجت شفاته الرقيقتان عن اعتراض بلهجة مهذبة باردة، غير أن الجنرال النمساوي لم يتوقف عن القراءة، بل قطب حاجبيه بغضب وحرك مرفقيه حركة تشبه القول: «بعد حين، بعد حين، سوف تحدّثني بكل رأيك، أما الآن، فأرجو أن تصغي إلى الشرح وأن تتتبع المراحل على الخريطة»، فرفع لانجيرون رأسه، وقد حملت عيناه تعبيرًا حائرًا مضطربًا، وتطلع إلى وجه ميلورادوفيتش، وكأنه يسأله شرحًا وتفسيرًا، لكنه لما تقابلت نظرته بنظرة الجنرال الروسي الخطيرة الخالية من كل معنى، أطرق بعينيه بكآبة وعاد إلى علبته يديرها بين أنامله.

غمغم بصوت مرتفع متعمدًا إسماعه للآخرين: درس جغرافيا! وكان برزيبيسزوسكي، يوجه صيوان أذنه بيده، بحركة مهذبة وقورة، نحو فيروذر، شأن الرجل المستغرق في الإصغاء إلى محاضرة ممتعة يخشى أن تفوته كلمة منها، أما

دوختوروف القصير فكان منحنيًا فوق الخريطة قبالة فيروذر، يدرس بدقة مشروع الهجوم والمواقع التي يجهلها، وعلى وجهه آيات الاهتمام والتواضع، وبلغ من شديد عنايته أن قاطع زميله النمساوي مرارًا طالبًا إليه أن يتفضل بإعادة جملة لم يستوعبها أو مقطوع لم يسمعه جيدًا، أو بعض أسماء القرى الصعبة، فكان فيروذر يستجيب لرغباته ودوختوروف يسجل ملاحظاته في دفيفته.

ولما انتهت القراءة بعد ساعة على البدء فيها، أوقف لانجيرون دوران علبة سعوطه وأعرب — دون أن ينظر إلى فيروذر أو إلى أحد زملائه بصورة خاصة — عن رأيه قائلاً إنه سيكون من الصعوبة بمكان القيام بمثل هذه المناورة التي تركز أسسها على معرفة مواقع العدو، بينما أن الحقيقة لا تؤيد هذه المعرفة؛ لأن تحركات هذا العدو مجهولة منا لا تسمح لنا بمعرفة مواقعه، وكان ذلك الاعتراض — رغم وجاهته — يهدف إلى إشعار فيروذر الدعي المتبجح، بأن هؤلاء العسكريين المحترفين الذين يعاملهم معاملة الجهلة الحمقى، على استعداد لتلقيه دروسًا في فنون القتال. وفي تلك الأثناء، فتح كوتوزوف عينه الوحيدة بعد أن انقطع صوت فيروذر الرتيب، وكأنه طحان نام على صوت مطحنه الممل الرتيب؛ ليستيقظ فجأة عند توقف الصوت، أصغى بشرود إلى وجهة نظر لانجيرون، وبادر إلى إغلاق عينه وكأنه يقول: «باه! ألا زلتم تناقشون هذه التفاهات!» وعاد رأسه يسقط على صدره مثقلًا بالنعاس.

كان لانجيرون يرغب في النيل من شعور فيروذر والحق من كبريائه وغروره الذي يصور له أنه يستطيع وضع الخطط المنسقة الموفقة؛ لذلك فقد راح يبين أن بونابرت يستطيع أن يتحول بسهولة إلى الهجوم بدلًا من أن يكون مهاجمًا؛ الأمر الذي يجعل تلك الخطة عديمة الفائدة، غير أن فيروذر ما كان يجيب على كل تلك الانتقادات إلا بابتسامة ملؤها السخرية؛ ابتسامة مهيأة من قبل، ولا شك، لتجيب على كل الاعتراضات من أي نوع كانت.

قال مؤيدًا رأيه: لو كان قادرًا على مهاجمتنا، لقام بذلك اليوم.

فاعترض لانجيرون بقوله: هل أنت واثق من عجزه؟

فأجاب فيروذر جازمًا وعلى شفثيه ابتسامة الطبيب الذي يطالب باستعمال علاج النساء المخرفات: إنه لا يملك أكثر من أربعين ألف رجل على أبعد تقدير.

فابتسم لانجيرون ابتسامة ساخرة وقال معقبًا: إنه إذن يسعى إلى حثفه بظلفه!

وعاد من جديد يبحث بنظره عن تأييد جاره ميلورادوفيتش، غير أن هذا — كما

كان واضحًا — لم يكن قط يفكر في الموضوعات التي يناقشها زملاؤه.

قال: لعمرى، إنَّ كل هذا سيقرَّر في ساحة المعركة.
عاد فيروذر يدلل بابتسامة جديدة على وقاحة هؤلاء الجنرالات الروسين وسفاهاتهم، الذين يسمحون لأنفسهم بمعارضته — هو — ومطالبته ببراهين حول أمور لم يكن مقتنعًا من وجاهتها قناعة تامة فحسب، بل إنه كذلك أقنع الإمبراطورين بتلك الوجهة، قال: لقد أطفأ العدو نيرانه والجلبة المستمرة ترتفع من معسكره دون انقطاع، فماذا يعني ذلك؟ هل يبتعد أم يحول مراكزه؟ إن الاحتمال الأول هو وحده الذي نخشاه.
ثم أعقب وابتسامته تلك لا تفارق شفتيه: فإذا افترضنا جدلاً أنه يبتعد، وأنه سيتمركز في توراس، فإنه سيوفر علينا كثيرًا من المتاعب، على كل حال، فإن تفاصيل خطتنا — حتى أصغر خطوطها وأتفهها — تبقى نافذة بدقة.

فسأل الأمير أندريه الذي كان يتحيَّن منذ زمن طويل فرصة إظهار مخاوفه وشكوكه: كيف ذلك؟

وفي تلك اللحظة، استيقظ كوتوزوف فسعل، وأجال حوله نظرة دائرية استعرض فيها وجوه الجنرالات، وقال: أيها السادة، إن خطة غد، أو على الأحرى اليوم؛ لأن الساعة قد جاوزت منتصف الليل؛ لا يمكن تعديلها، لقد سمعتم تلاوتها، وعلينا أن نقوم بواجبنا. وصمت فترة ثم أعقب: غير أن لا شيء يضاهي النوم في أهميته قبل أية معركة. فاذهبوا إلى أسرركم.

وتناهض فحذا المجتمعون حذوه وانسحبوا، وتبعهم الأمير أندريه، وكانت الساعة تشرف على الواحدة.

لم يستطع الأمير أندريه الإفصاح عن رأيه في المؤتمر الحربي الذي عُقد قبل بدء المعركة؛ الأمر الذي ترك في نفسه شعورًا عميقًا بالانزعاج والقلق. تُرى من كان على حق؟ أكان دولجوروكوف وفيروذر اللذين كانا يحملان لواء فكرة الهجوم ويمتدحانها، أم كوتوزوف ولانجيرون والآخرين الذين كانوا ينتقدون الفكرة وينادون بعدم ملاءمتها؟ ما كان يعرف! ولكن، أما كان كوتوزوف قادرًا على إطلاع الإمبراطور مباشرةً على تلك الخطة؟ ألم يكن ذلك التصرف قميئًا بتبديل الأمور؟

كان يحدث نفسه بقوله: «هل من الواجب التضحية بعشرات الألوف من البشر، ولعله يكون في عدادهم، لإرضاء حفنة من أفراد بطانته المتملقين؟! نعم، حياتي أنا أيضًا؛ لأنه لا يسترغب أن أقتل غدًا.» وفجأةً اكتسح مخيلته فيض من الذكريات إزاء فكرة الموت التي واثته؛ ذكريات بعيدة حبيبة، أخذت تمرُّ في خياله. رأى نفسه بعين الخيال يودّع أباه

الوداع الأخير ويترك زوجه، وتذكّر ليز الحبلى واستعداد فترات غرامها الأولى فشعر بعطف وإشفاق عليها وعلى نفسه. كان فريسة اضطراب عنيف لا يستطيع الاستقرار؛ لذلك فقد خرج من مسكنه الذي كان يشغله مع نيسفيتسكي وراح يذرع الطريق.

كان الضباب الخفيف يلف القرية في رداءه الشفاف الرقيق، وإشعاع هزيل من القمر يخترق ذلك الحجاب، فيضفي على الجو طابعاً غامضاً. راح يحدث نفسه: «نعم، غداً، غداً ... غداً قد ينتهي كل شيء من جانبي، غداً ولا شك، بل وبالتأكيد؛ لأن هاتفاً خفياً يؤكد لي ذلك، سيتسنى لي أن أظهر كفاءتي وقدرتي.» تصوّر المعركة واحتدامها وامتدادها المحزن، وارتكاز القتال في نقطة واحدة، ولبالاء الرؤساء كلهم وتشوش القادة. وعندئذ، تعرّض له الفرصة الذهبية لتحقيق «طولونه»^١ المنشود، عرّض على كوتوزوف بصوت واضح حازم تفاصيل خطته وكذلك على فيروذر، ثم على أسماع الإمبراطورين، وذهل هؤلاء جميعاً بدقة خطته وحسن سبكها ووضعها، لكنهم لم يتعهدوا مجتمعين أو فرادى باحتمال نتائجها وتطبيقها؛ وعندئذ، وبعد أن تأكد من أن أحداً لن يتدخل في خطته، فيعترض عليها أو يدعمها، ترأس سرية، بل جيشاً، وقاده إلى حيث كانت المعركة في أدق المراحل وأخطرها، فأنقذ الموقف وانتصر. وهنا اعترض صوت داخلي قائلاً: «الموت والآلام؟» لكن الأمير أندريه لم يتعشم مشقة الجواب، لقد كان يتتبع خطوط فوزه وخُطى انتصاراته، لقد وضع بمفرده خطة المعركة المقبلة، رغم أنه لم يكن يحمل أي لقب باستثناء لقب الملحق العسكري بقيادة كوتوزوف، وكان هذا المركز هو كل زخر لديه؛ فقد قاد العملية الناجحة، ثم إنه هو نفسه ووحده الذي سينتزع النصر من براثن الهزيمة، وعندئذ يقال كوتوزوف من مركز القيادة وتُسند هذه إليه، فيصبح القائد هو بولكونسكي، واعترض الصوت مرة ثانية قائلاً: «وبعدئذ؟ هذا على فرض أنك لم تُقتل أو تُجرح عشرات المرات، أو تُمنى بخيانة منتظرة، وبعدئذ؟ ماذا سيكون؟»

فأجاب الأمير أندريه: «وبعدئذ؟ حسنًا، وبعدئذ! لست أدري ماذا سيحدث بعدئذ، لا أستطيع ولا أريد معرفة ما يأتي بعدئذ، لكنني إذا كنت حقيقةً أسعى وراء هذا الشيء الذي يطلق عليه اسم المجد أو الشهرة، أو ... فإنني لا أذان لأنني أردته وعملت من أجله، نعم من أجل هذا وحده! لن أعترف لأحد بهذه الحقيقة، ولكن، رباه! ماذا أستطيع أن أفعل إذا

^١ سبق أن بيّنا المقصود بهذا التعبير عند البحث عن نفسية بولكونسكي في الفصول السابقة. (المترجم)

كنتُ لا أُحب إلا هذا المجد والشهرة العظيمة بين الرجال؟ إن الموت والجرح وفقد أسرتي، كل هذه المصائب لا تخيفني، صحيح أنَّ لدي عددًا كبيرًا من الأعزَّاء؛ وعلى رأسهم أبي وأختي وزوجتي، مع ذلك فإنني مهما بدوْتُ مخيفًا ومنافيًا في تفكيري للطبائع البشرية، فإنني على استعداد للتضحية بهم دون تردد في سبيل دقيقةٍ مجدٍ ولحظةٍ فوزٍ، وفي سبيل حبِّ الأشخاص الذين لا أعرفهم والذين لن أعرفهم قط وسلامتهم ... أشخاص مثلهم!» وأصاخ السمع إلى لغط أصوات كان يرتفع في تلك اللحظة من فناء مسكن الجنراليسيم، فأعقب قائلاً: «أشخاص مثل هؤلاء!»

كان التابعون والخدم في قصر كوتوزوف يتأهبون — ولا شك — للنوم، وكان أحدهم — ولعله الحوذي — يريد إثارة «تيت» طاهي كوتوزوف، الذي كان آندرية يعرفه حق المعرفة. سمع السائق يقول: تيت، هه، تيت! فأجاب الرجل مستفسراً: ماذا تريد؟

فعاد الأول يقول مازحاً: امضِ إلى صغيرتك الفتانة! فأرعد الصوت الآخر، وقد طَغَتْ عليه أصداء الضحكات المتعالية: ليحملك الشيطان! وأعقب آندرية في سرِّه: «رغم كل ذلك، فإنني أتلقي برغبة الفوز من أجلهم جميعاً، إنني لا أمجد إلا هذه القوة الغامضة، هذا المجد الذي أشعر به محلقاً فوق رأسي في هذا الضباب!»

الفصل الثالث عشر

أحلام روستوف

كانت كوكبة روستوف تستكشف ذلك المساء لصالح جيش باجراسيون، كان الفرسان مقسمين إلى فصيلتين ومنتشرين على طول خطوط الجيش الأمامية. وكان روستوف يطوف على فرسانه مفتشاً، يغالب النعاس الذي يُثقل جفنيه ورأسه، كان يميّز في الفراغ الشاسع الممتد أمامه أضواء الجيش الروسي الخافتة، لكنه ما كان يرى في الرقعة التي يشغلها العدو إلا الظلام الدامس، لم يستطع اختراق تلك الحجب المذهلة الصفيقة بنظراته، لقد كان يظن تارةً أنه رأى أشكالا سوداء تتحرك، وأحياناً يعتقد أنه طالع بنظره نيران العدو المخيفة بإحكام، لكنه كان يُقنع نفسه بأن هذه المرئيات ليست إلا أوهاماً خُدع بها خياله. أطبق جفناه من التعب، وصوّر له خياله الإمبراطور تارةً ودينيسوف وذكريات موسكو تارةً أخرى، فكان يفتح عينيه بسرعة، فلا يرى إلا رأس جواده وأذنيه وأحياناً أشباح الخيالة عندما كان يقترب من بعضهم، بينما ظل الظلام الكثيف يخيم على الأبعاد التي يربض فيها العدو.

راح يفكر في سرّه: «لِمَ لا؟ لعلني إذا قابلت الإمبراطور حصلتُ منه على إحدى المهام التي يسندها إلى الآخرين، لعله يقول لي مثلاً: «اذهب واستطلع ما يحدث هناك»، إنه كما يبدو، كثيراً ما يقع بصره على أحد الضباط فيلحقه بخدمته، ولكن ماذا لو حصل لي مثل ذلك؟ أواه! كم سأضحى في سبيل حمايته، كما سأبذل لأحدثه بالحقائق، وكم سأعمل لأفصح الخونة وأكشف عن المارقين!» ويجسد له الخيال هذه الآمال، فيرى نفسه بعين الواقع مشتبكاً مع عدوّ أو خائن ألماني، فيطرحه أرضاً ويضربه ويصفعه في حضرة معبوده الإمبراطور ليبين له مبلغ حبه وتفانيه في سبيل شخصه المبجل، وفجأةً أعادته صرخة ثابتة بعيدة إلى الحقيقة، فانتفض وفتح عينيه.

تساءل: «أين أنا؟ آه! نعم، في الخطوط الأمامية، إن كلمة السر هي تيمون، أولوتز ... يا للضنك ببقاء كوكبتنا في عداد الاحتياط غدا! سأطلب الاشتراك في العمليات، لعل بذلك فرصتي الوحيدة لرؤية الإمبراطور، لقد أزعجت ساعة تبديل الحرس، سأقوم الآن بجولة جديدة، وبعدها أقدم ملتصقي للجنرال.» انتصب على ظهر جواده، وهمز كشح الجواد للقيام بجولته الأخيرة. بدا له الظلام أقل حلقة، فاستطاع أن يرى إلى يساره منحدرًا خفيفًا مضيئًا، ومن الجانب الآخر تلاً مظلماً، بدا لعينه منتصبًا كالجدار القائم، شاهد على ذلك التل بقعة بيضاء لم يتمكن من تحديد نوعها ومَنشئها، تُرى هل كانت بقعة جرداء يُضيئها القمر، أم ذراعًا من الثلج أم صفاً من المنازل؟ حُيل إليه أنه يرى تلك البقعة تتحرك، راح يحلم: «ينبغي أن تكون هذه البقعة كتلة من الثلج. بقعة، البقعة، بقعتي ... آه، نعم، ناتاشا، أختي وعينيها السوداوين ... هل ستدهش عندما أروي لها أنني شاهدت الإمبراطور؟ ... ناتاشا ... حاولي ألا تسقطي ...»

هتف أحد الفرسان إلى يمينه فجأة، وكان روستوف قد مرَّ به وهو بين النوم واليقظة: احذر نبالتك من الأدغال.

استيقظ من حلمه، فرأى أن رأسه كان يتهدد فوق ذؤابة الجواد، انتصب على السرج، وتوقف قرب الفارس. لقد كان النوم، النوم البريء الذي يُنقل عيون الأطفال، يطغى على حواسه.

عاد يحدث نفسه: «هيا، بماذا كنت أفكر؟ لا، لا ينبغي أن أنسى، آه، نعم، كنت أفكر فيما سأقوله للإمبراطور أليس كذلك؟ كلاً، إن هذا لن يكون إلا غداً. آه، نعم، كنت أفكر في ناتاشا ... بقعة، بقعة، بقعة ... أية مهمة^١ تنتظرنا غداً؟ ... من هذا؟ الفرسان؟ ... آه، نعم الفرسان ذوو الشوارب، أين يا تُرى شاهدت واحداً من هؤلاء الفرسان ذوي الشوارب؟ آه، نعم، لقد كان ذلك في شارع تفير Tver قبالة منزل العجوز جوريف ... يا له من باسل هذا الدينيوسف! ... لكن هذه الأفكار كلها ليست إلا حماقات، المهم هو أن الإمبراطور موجود هنا! ... عندما نظر إليّ، حُيل إليّ أنه أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يجرؤ

^١ إن كلمتي بقعة ومهمة تتشابهان من حيث النطق بهما باللغة الفرنسية، ولا تختلفان كتابةً إلا بإشارة A تضاف إلى الثانية، ومن هنا كان انتقال أفكار الضابط التعس من إحداهما إلى الأخرى رغم تباين المعنى Têche, Tache. (المترجم)

على قوله ... كلاً، بالطبع إنه لم يجرؤ ... حماقات كل هذه أيضاً! المهم هو ألا أنسى ...
تُرى ماذا كان ذلك الشيء المهم الذي كنت أريده؟ ... ناتاش، لطخة، لطخة ... بقعة ...
ومن جديد عاد رأسه إلى الانحناء فوق حارك الجواد، وفجأة خيل إليه أن هناك مَنْ
يطلق النار عليه، فهتف منتفضاً: ما هذا؟ ماذا هناك؟ اعمل السيف، اعمل السيف!

وفي تلك اللحظة التي فتح فيها روستوف عينيه، سمع من جانب العدو جلبة طويلة
صادرة عن ألوف من الأصوات، فنصب جواده وجواد الفارس القريب منه آذانهما، وفجأة
أضياء نور على المرتفع وأعقبه آخر، ولم تلبث النيران أن التمعت على طول الجبهة
الفرنسية، بينما ظلت الجلبة تزداد امتداداً واتساعاً. وعلى الرغم من أن روستوف لم
يستطع أن يميز تلك الأصوات لسبب وفرة عددها وكثرتها، فإن الأحرف التي التقطها
أكدت له أنها صادرة عن خناجر الفرنسيين.

سأل الفارس الذي كان إلى جانبه: ما معنى هذا؟ ماذا تظن؟ إنه صادر عن معسكر
العدو، أليس كذلك؟

فلم يُجب الفارس، وعاد روستوف يسأله بعد أن انتظر جوابه عبثاً: ماذا؟ ألا تسمع؟
فأجابه الفارس بتذمّر: الله يعرف ما الخبر يا صاحب النبالة.
قال روستوف فلحاً: إذا استهديننا بموقع العدو، فإن هذه الأصوات صادرة، ولا شك،
عنه!

فقال الفارس بلغته الرعاعية: قد يكون كذلك وقد لا يكون، ليس من السهل معرفة
ذلك في الظلام.

وأردف يهيب بجواده — الذي حاول التراجع — أن يقف: هه، كفاك حماقة، قف!
كان حصان روستوف أيضاً نافذ الصبر، لا يكاد يستقر على الأرض المغطاة بالجمد،
كان ينصب أذنيه ويضرب بقوائمه الأرض، ويميل نحو الأصواء، أما الصيحات فقد أخذت
تزداد وتتعالى وتذوب في جلبة عامة، لا تستطيع القيام بمثلها إلا الألوف المؤلفة من
الرجال، وكانت النيران منتشرة في تلك اللحظة على طول خط متناهٍ في البعد، لا شك أنه
كان خط العدو الأمامي، واتضح أخيراً معالم الأصوات، واستطاع روستوف أن يتبين
فيها هتافاً مؤداه: «ليحيَ الإمبراطور، الإمبراطور!» ف شعر كأن ذلك الهتاف سوط ينهال
على جلده.

قال يحدّث الفارس: لا يمكن أن يكون هذا بعيداً، لعله على الجانب الآخر من النهر،
أليس كذلك؟

فسعل الفارس بعد أن زفر زفرة غاضبة، وكان هذا كل الجواب، وفجأةً علا وقع حوافر جياد قادمة، وانبعث من ذلك الضباب الليلي شبح وكيل ضابط ما زال يقترب، حتى وصل إلى حيث كان روستوف، قال القادم: يا صاحب النبالة، لقد قدم الجنرالات. تبع روستوف وكيل الضابط وأذنه تُصغي إلى الهتافات والصيحات، واستطاع رؤية مفرزة من الفرسان تقترب؛ ورأى أن أحدهم يمتطي جوادًا أبيض كان القادمون هم الأمراء: باجراسيون ودولجوروكوف ومعهما أفراد حاشيتيهما. لقد جاء الأميران يستطلعان سبب تلك البادرة الغريبة؛ النيران والأصوات بعد الظلام والصمت المطبق. قدّم روستوف تقريره لباجراسيون، وانتظم في عداد الضباط المساعدين، يصغي بشغف إلى ما يقوله الجنرالان.

قال دولجوروكوف بتأكيد: صدّقني إنها مجرد خدعة حربية، إنه بينما ينسحب متراجعًا، يضع جنود المؤخرة، ويأمرهم بإبقاء النيران والهتاف على هذا الشكل؛ لإيهامنا بأنه في مكانه، إنها خدعة.

فأجابه باجراسيون: إنني أشك في هذا القول، لقد رأيتهم هذا المساء فوق هذا النتوء، لا شك أن جيشهم لو كان ينسحب كما تقول، لَمَا ظل هؤلاء فوق التل. وأضاف يسأل روستوف: يا سيدي الضابط، هل لا زال مُشائهم المكلفون بحماية الجناحين في أمكنتهم؟

— لقد كانوا هناك هذا المساء، أما الآن فلا أستطيع الجزم، فإذا أصدرتم لي سعادتكم الأمر، مضيئ مع فرساني لمعرفة ذلك.

توقف باجراسيون محاولاً تمييز وجه روستوف وسط الضباب، وأخيرًا قال: حسنًا، اذهب واستطلع.

— كما تأمرون سعادتكم.

همز روستوف كشح جواده واستوقف وكيل الضباط فدتشكو واثنين من رجاله، وأصدر إليهم الأمر بمواكبته، وانحدر عن المرتفع، وراح يقطع المسافة باتجاه الأصوات بأقصى ما تستطيعه الخيول من جري. كان يشعر بقلق مشوب بالسرور لذهابه وحيدًا مع ثلاثة من الفرسان نحو ذلك الأفق المليء بالضباب؛ حيث يكمن السر الرهيب والخطر الجسيم الذي لم يستطلعه قبله إنسان. ومن أعلى المرتفع، صاح به باجراسيون يأمره ألا يتجاوز النهر، لكنه تصامم عن الأمر وأوغل في جريه رغم العوائق الكثيرة والأخطاء التي كان يقع فيها، لقد كان يرى الدغل أشجارًا والحفر رجالًا. ولما بلغ أسفل المنحدر، لم يُعد

يرى نارًا، سواءً أكانت النار الروسية أو نيران العدو. لكن الأصوات أخذت تزداد اقترابًا ودويًا ووضوحًا، خُيِّلَ إليه أنه يرى نهير أسفل الوادي لكنه لما اقترب منه، رأى أنه كان طريقًا ممهدة، فأوقف جواده وهو لا يدري أيتبع الطريق أم يسير في الاتجاه المعاكس، أخترق الحقول التي تحاذي الطريق في ذلك الظلام أم يعود إلى نقطة انطلاق أخرى. وأخيرًا قدَّر أن سلوك الطريق كان أقل خطرًا؛ لأنه كان أشبه باللطخة المضاءة وسط ذلك الضباب، فكان يمكن تمييز الأشباح عليها بأكثر سهولة، هتف بفرسانه: «اتبعوني»، وعبر الطريق محاولاً تسلُّق التل الذي شاهد الرقباء الفرنسيين فوقه مساء ذلك اليوم هدبًا.

قال أحد فرسان دينيسوف: ها هو ذا يا صاحب النبالة!
انتصب ظلٌّ في ذلك الضباب، ولم يجد روستوف وقتًا كافيًا لتبيُّنه؛ إذ التمتع شهابٌ نارٍ أعقبه دوي طليقة نارية، ومرت الرصاصة تشق الضباب فوق رءوس الفرسان الأربعة بزمجرة صاخبة. لم تنطلق رصاصة ثانية، لكن وميض «الكبسولة» فضح رغبة صاحبها. لوى روستوف عنان جواده، وجرى بأقصى سرعة عائداً من حيث أتى. دوت أربع طلقات أخرى خلال فترات متقطعة وعلى أبعاد مختلفة، ومرت الرصاصات تصغر وسط الضباب، فأوقف روستوف حصانه الذي كان شديد الانفعال كفارسه، وراح يسيره الهوينا بخطوات وثيدة، كان صوتٌ بهيج يغمغم في أعماقه: «هيا، طليقة أخرى!» غير أنَّ الرصاص توقف.

وقبل أن يصل روستوف إلى حيث كان باجراسيون ببضع خطوات، هدب حصانه، ورفع يده اليمنى إلى حافة خوذته بالتحية. كان دولجوروكوف لا يزال يصر على أنَّ الفرنسيين ينسحبون وأن تلك الأصوات ليست إلا خدعة حرب. كان يقول: علام تدل هذه النيران؟ إنهم يستطيعون ترك بعض الحراس حتى بعد انسحابهم لمجرد الخداع. فيجيبه باجراسيون: صدَّقني يا أمير إنهم لم يذهبوا جميعاً، سوف تتأكد من ذلك غداً صباحاً.

وكان روستوف قد وصل فقال: لا يزال هناك نقاط مراقبة على التل يا صاحب السعادة، إنهم لا زالوا حيث رأيتهم هذا المساء.
كان منحنيًا إلى الأمام ويده إلى قبعته بالتحية، يستخفه الفرع الذي أحدثته تلك المهمة في نفسه، وخصوصًا لعلعة الرصاص الذي تطاير فوق رأسه، فما كان يستطيع كتمان ابتسامته المشرقة.

قال باجراسيون: حسن، حسن جدًّا، أشكر يا سيدي الضابط.

قال روستوف: هل تسمحون لي سعادتكم بتقديم ملتَمَس؟

– ما موضوعه؟

– إن كوكبتنا ستبقى غداً في عداد الاحتياط، وإنني أرغب في الالتحاق بالكوكبة الأولى.

– ما اسمك؟

– كونت روستوف.

– آه، حسنًا، ابقَ معي كضابط تابع.

وسأله دولجوروكوف: أأنت ابن إيليا أندرييتش؟

غير أنَّ روستوف لم يُجب على هذا السؤال بعد أن خاطب باجراسيون قائلاً: إذن، هل أمل أن يحقق ملتَمسي؟

– سأصدر أوامري.

فقال روستوف في سرّه: «غداً، يجوز أن أكلّف بحمل رسالة أو تقرير إلى الإمبراطور، حمداً لله وشكراً!»

كان سبب تلك النيران المشتعلة في صفوف العدو وتلك الهتافات المدوية في معسكراته، حضور نابليون بنفسه؛ الذي راح يستعرض القطعات على ظهر جواده، بينما كان القواد يقرءون على الجنود الكلمة التي وجَّهها إليهم، فلما وقعت أعين الجنود عليه، أشعلوا النيران؛ نيران مشاعل من التبن، وراحوا يَجْرُونَ وراءه هاتفين: «يحيا الإمبراطور!» أما الكلمة التي وجَّهها إليهم فكانت كما يلي:

أيها الجنود

إن الجيش الروسي ينتصب الآن أمامنا؛ لينتقمَ لهزيمة حلفائه النمساويين في أولم، إن وحداته هي نفسها التي هزمتوها في هولاً برونو، والتي ما فتئت متأثرون خطاها في هزيمتها منذ ذلك اليوم.

إن المواقع التي نحتلها رائعة ممتازة، سوف يكشفون لي عن جانبهم حين التفافهم حول جناحي الأيمن. أيها الجنود، سوف أدير بنفسني كتابكم، وسأظل بعيداً عن خطوط النار إذا قَدَرْتُم بشجاعتكم المعهودة أن تزرعوا الفوضى والارتباك في صفوف العدو، ولكن إذا رأيتُ أن النصر بات مهدداً في أية لحظة، فسترون إمبراطوركم يعرِّض نفسه للرصاصات الأولى؛ لأن النصر لن يعرف التردد، خصوصاً في هذا اليوم الذي يتوقف فيه شرف الجيش الفرنسي على الانتصار؛ ذلك الشرف الذي يدعم شرف الأمة الفرنسية بأسرها.

لا يجب أن تفرغ الصفوف بحجة إبعاد الجرحى، وليكن نُصَب عين كلٍّ منكم أنه يجب إلحاق الهزيمة بأجزاء الإنجليز هؤلاء، الذين يُضمرون حقداً هائلاً على أمتنا.

إن هذا النصر سيُنهي هذه الحملة، وسنستطيع بعدها إقامة معسكرات الشتاء، وستلحق بنا القطعات الجديدة التي تُشكّل الآن في فرنسا؛ وعندئذٍ سيكون الصلح الذي أعقده جديراً بشعبنا وبكم وبى كذلك.

الفصل الرابع عشر

نابليون

كان الظلام لا زال مخيمًا رغم أن الساعة كانت قد جاوزت الخامسة، وكان جناح باجراسيون الأيمن والوسط والقوات الاحتياطية لا زالت في مواقعها لم تتحرك. أما الجناح الأيسر، فقد كان موجوده من المشاة والفرسان والمدفعية — الذين كان عليهم الهبوط أولاً ومهاجمة جناح العدو الأيمن، حسب الخطة المرسومة، والإلقاء به باتجاه جبال بوهيميا — على أتم استعداد للعمل، يجهزون آخر ما هم في حاجة إليه. وكان دخان المهاجم، التي كانت النار تلتهم فيها كل ما كان يُلقى إليها به من أشياء غير ذات أهمية، يُمض العيون ويحرقها، والوقت مظلمًا باردًا، وكان الضباط يتناولون طعامهم على عجل ويشربون الشاي، والجنود يلتهمون قطع البسكويت، ويضربون الأرض بأقدامهم استجابة للدفع، أو يحيطون بالمواقد التي كانت تغذي نيرانها أخشاب جدران المهاجم والكراسي والموائد والعجلات والعلب، وكل ما كان يتعذر حمله ونقله. ولما وصل الأدلة النمساويون الذين كان عليهم إرشاد الوحدات الروسية في زحفها، كان وصولهم إيدانًا ببداية الحركة.

ما كان واحد من أولئك الضباط يمثل أمام أحد قواد الكتائب أو السرايا، حتى كانت تلك الكتيبة تتحرك وَفَقَّ الخطة المرسومة. فالجنود يغادرون مضاجعهم مسرعين، فيحشرون غلايينهم في سوق أحذيتهم العالية، ويلقون بأجربتهم في العربات، ثم يتنكبون بنادقهم، ويقفون في صفوف منظمة، والضباط يزرون ستراتهم، ويربطون نُطْقهم وخرجهم، ويطفون بالصفوف ليصدروا أوامرهم، والخبراء والتابعون يقطرون الخيول إلى العربات، ويكدسون الأمتعة عليها ويشدون السيور، والزعماء «كولونيل» والعقلاء والضباط الملحقون يمتطون خيولهم، ويرسمون إشارات الصليب على صدورهم، ويعطون تعليماتهم الأخيرة للحوذيين والخبراء الذين سيمكثون في الخطوط الخلفية احتياطًا. ولم يلبث الصوت الرتيب — صوت ألوف الأقدام التي تقرر الأرض — حتى علا. كانت

الصفوف تسير دون أن تعرف الهدف أو أن تميز طبيعة الأرض التي كان الازدحام والدخان والضباب المتكاثف تتحد لإخفائها وحجب الهدف الذي تسعى تلك الصفوف إليه عن الأبصار.

إن الجندي في تسياره محاط ومُساق في صفوف وحدته كالبَحَّار السجين في حدود زورقه. إنه مهما توغل وابتعد، ومهما ازداد الخطر المحقق به وتعاظم، فإن عينيه تقعان أبداً على رؤسائه أنفسهم وزملائهم أنفسهم، وعلى الرقيب الأول إيفان ميتريش «إياه» وكلب السرية «نوارو»، تميمة الفرقة، وكذلك البَحَّار الذي يجد نفسه أبداً يواجه الصاريات ذاتها والحبال ذاتها والمنظر المألوف دون تبديل، إن الجنود لا يطلبون معرفة الامتداد الذي يجري فيه زورقهم إلا نادراً، لكنهم في يوم المعركة يشعرون جميعهم في قرارة نفوسهم بصوت خطير؛ بهاتف لا يعرف إلا مصدره، يوقظ فضولهم السادر، وينبئهم بقرب حلول لحظة حاسمة رهيبة، وعندئذ يحاولون اختراق أفقهم المحدود، فيصفون الهمسات ويراقبون الحركات وي طرحون الأسئلة تلو الأسئلة، وهُم في مزيد الشوق إلى معرفة ما يدور حولهم.

أصبح الضباب شديد الكثافة، حتى إنَّ الجندي ما كان يستطيع رؤية أبعد من عشر خطوات أمامه، رغم أن النهار كان قد انبج. كانت الأدغال ونباتات العوسج تبدو للنظر أشبه بأشجار ضخمة شامخة، والأخاديد المتقاربة أودية سحيقة. وكان خطر الاحتكاك بالعدو والاصطدام به كامناً في كل مكان من على اليمين وعلى الشمال. وكانت الرؤية المحدودة تزيد في وقع ذلك الخطر، مع ذلك فقد راحت الوحدات تتسلل عبر ذلك الضباب الكثيف فترة طويلة، وسط تلك الأراضي المجهولة، فتتحد إلى الأودية، أو تتسلق المرتفعات، وتسير بحذاء الأسوار والحظائر والبساتين، دون أن تلتقي بالفرنسيين. بينما كانت الوحدات الروسية تتبع ذلك الاتجاه آتية من كل حذب وصوب، تطالع العين صفوفها في كل لحظة. وكانت تلك البادرة وحدها تُطمئن الجندي الذي يرى أن عدداً كبيراً من بني قومه وزملائه يتقدمون معه نحو هدف واحد؛ هدف مجهول منهم جميعاً.

كانوا يتحدثون بين الصفوف قائلين: هه، ها هم أولاء جنود روسيون من كورشك.^١

^١ كورشك مدينة روسية تقع جنوبي الأورال، سكانها ١٢٠٠٠٠ نسمة. (المركز الإداري لمقاطعة تيريت).
(الترجم)

فيجيب مغضباً: ذلك أنهم كُثُر، إنهم يعدون الألوف المؤلفة يا أخي، لم أجد وسيلة للإحاطة بعددهم أمس عندما أوقدت النيران. حقيقةً يمكن القول إن المرء ليخال نفسه في موسكو!

كان رؤساء الوحدات متأخرين قليلاً عن وحداتهم، لقد كان هؤلاء السادة — كما نَوَّهْنَا في جلسة المؤتمر الحزبي — على أسوأ مزاج، وكانوا شديدي الاستياء لرؤيتهم العمليات في بدايتها؛ فكانوا ينفذون الأوامر بإخلاص، ولكن لا يبالون بمعنويات الجنود، وكان هؤلاء يسيرون بوداعة وابتهاج شأنهم كلما مضوا إلى المعركة، وخصوصاً في حالات الهجوم. غير أن معظم القطعات اضطرت إلى التوقف بعد مسير ساعة كاملة في ذلك الضباب الكثيف، واكتسحت الصفوف إحساسات مؤلة بالفوضى واللبال. صحيح أن الإنسان ليعجز عن تبيان الأسلوب الذي تتصل فيه تلك المشاعر، وتنتقل من فرد إلى آخر، غير أن امتدادها بسرعة مدمرة هائلة، وانتشارها — كما تكتسح المياه أرضاً منخفضة — أمر مؤكد ثابت. ولو أن الجيش الروسي كان وحيداً لا يعضده حلفاء، لكان ممكناً أن يمر وقت طويل قبل أن يصبح ذلك الشعور مؤكداً محققاً وعاماً شاملاً، أو في تلك الأثناء، فقد راح كلُّ من القادة والجنود، على السواء، يُلقون تبعة هذا الأمر على عاتق أولئك «الألمان البلهاء» وأولئك الملاعين «أكلّة النقانق»، بمكر وتشفٍّ مألوفين عند البشر.

— هه ماذا؟ ألا نتحرك؟ هل الطريق مقطوع؟ أم تُرانا وقعنا على فرنسيين؟
— كلاً، لو كان كذلك لأطلقوا النار علينا، ونحن لم نسمع بعد شيئاً.
— وإذن، ألكي يوقفونا في العراء جروا بنا ركضاً منذ الصباح؟ إن كل هذا نتيجة خطأ أولئك الألمان الملاعين، عصابة الحمقى!

— لو أن الأمر كان راجعاً إليّ لأرغمتهم على السير في الطليعة، وها ها! لا شك أنهم في أحسن حال في المؤخرة، يلتهمون ما يشاءون، بينما أوقعونا هنا ومعدنا فارغة خاوية! وزمجر ضابط: للجنة! ألن ننتهي من هذا؟ إنهم يزعمون أن الفرسان يقطعون الطريق.

فأجابه آخر: ماذا تعمل بمثل هؤلاء الألمان الأغبياء؟ إنهم لا يعرفون حتى بلادهم. وهتف أحد الضباط المساعدين، وكان وصل لتوه من أية فرقة أنت؟
— من الثامنة عشرة.

— إذن ماذا تفعل هنا؟ كان ينبغي أن تكون في الطليعة منذ زمن طويل، أما الآن فإنك تتعرض للانتظار حتى المساء.

فقال الضابط وهو يبتعد: هل الأمر على مثل هذا السخف! إنهم لا يعرفون أنفسهم ماذا يعملون!

ووصل جنرال بعد ذلك، وصاح بصوت مرتفع بلغة أجنبية، فقال أحد الجنود، وهو يشير إلى الجنرال الذي كان يبتعد: تافا، لافا! ماذا يُعني؟ إننا لا نفقه شيئاً، كان يجب قتل هؤلاء السفلة رمياً بالرصاص!

ومن كل مكان كان هناك مَنْ يزمر: كان علينا أن نحتل مواقعنا قبل الساعة التاسعة، مع ذلك فإننا حتى الآن لم نقطع نصف الطريق! ألا ترى مبلغ العظمة في ترتيبهم وإعدادهم!

حلّ الخور محل العزيمة التي بدأ الجنود بها يومهم، وتطور إلى لونٍ من الغضب القاصر عن بلوغ مداه؛ غضبٍ على سخف الأساليب المتبعة وخطيئة الألمان الفادحة.

وكان سبب ذلك البلبال مرده قرارٌ اتخذته القيادة العليا: لقد وجدت أن وسط الجيوش قد أصبح متباعداً عن الجناح الأيمن، فأصدرت الأوامر بإيقاف زحف المشاة، وانتقال الفرسان النمساويين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يحمون الجناح الأيسر، إلى الجناح الأيمن لحمايته؛ الأمر الذي جعل المشاة يتوقفون وقتاً طويلاً ريثما تمر تلك الموجة الزاخرة من الفرسان الذين يعدون بالألوف.

وفي تلك الأثناء، كان الجنرال الروسي ثائراً على الدليل النمساوي في مقدمة الجيوش. كان الروسي يرغب في مزيد مطالباً بإيقاف الفرسان ليعود المشاة إلى سيرهم، بينما كان النمساوي يحتمي وراء أوامر القيادة العليا، وخلال ذلك، كانت القطعات متوقفة مغيظة تفقد شجاعتها وحماسها، وانقضت ساعة كاملة قبل أن تعاود المشي والنزول إلى أعماق الوادي؛ حيث الضباب الذي كان قد انجاب فوق المرتفعات لا يزال كثيفاً مظلاً. أزلت طليقتان ناريتان في مقدمة الجنود، وسط ذلك الضباب، ثم تبعتهما طلقات أخرى بدأت غير متتابعة أول الأمر، وما لبثت أن زادت حدةً على ضفاف جولدباخ.

وكان الجنود الروسيون لا يتوقعون الالتحام مع العدو هنا؛ لذلك فقد أخذوا على حين غرة، دون أن يسمعوها عبارة تشجيع واحدة. والأدهى في الأمر أنهم ما كانوا يرون شيئاً أمامهم أو حولهم، اقتنعوا في تلك اللحظة أنهم وصلوا متأخرين، فراحوا يجيبون على نيران العدو بتراح؛ فيتقدمون تارةً ثم يتوقفون، دون أن يتلقوا أي أمر من القوادر الكبار أو بواسطة ضباطهم الملحقين الذين كانوا يضلون في ذلك الضباب دون التعرف على الوحدات التي يريدون الاتصال بها. وهكذا بدأت المعركة بالنسبة للفيالق الأول والثاني

والثالث، التي انحدرت من هضبة براتزن التي لم يبقَ فوقها إلا الفيلق الرابع الذي يقوده كوتوزوف بالذات.

وفي الأعماق — حيث بدأت العمليات — كان الضباب كثيفاً، أما على المرتفعات فقد باتت الرؤية ميسورة، حتى إنَّ المرء كان يستطيع معرفة ما يدور أمامه، لم يكن أحد يعرف إذا كانت قوات العدو الرئيسية كامنة على بُعد ميلين أو ثلاثة أميال كما كان الروسيون يتوقعون، أم أنها تنتظرهم وراء هذا الخط من الضباب الكثيف، نعم، لم يكن أحد يستطيع تحديد ذلك.

بلغت الساعة التاسعة، وبحر الضباب ما زال متلاطماً في الأعماق ممتداً على مسافات شاسعة، أما باتجاه قرية شلاباينتز؛ حيث كان نابليون يرقب على مرتفع هناك، محاطاً بماريشالاته، فقد كان منقشاً تماماً، لقد كانت السماء الزرقاء الصافية المشرقة تمتد فوقه، وقرص الشمس الأحمر يغمر بإشعاعاته الوردية الفاقعة سطح ذلك البحر الأبيض من الدجنة. لم يكن الجيش الفرنسي بكامله، ونابليون بالذات مع كامل أركان حربه على الطرف الآخر من النهر وفي تخوم مستنقعات سوكولينتز وشلاباينتز؛ حيث كان يزمع الجيش الروسي وحلفاؤه مهاجمته هناك، بعد أن يُعدوا له العدة اللازمة، بل كان هنا، على هذا الجانب من الضابط النهر، شديد القرب من القطعات الروسية، حتى إنَّ نابليون كان يستطيع بعينه المجردة أن يفرّق بين الضابط والجندي، وبين الفارس والراجل.

كان الإمبراطور متقدماً ماريشالاته قليلاً ممتطياً صهوة جواد عربي أشهب، مرتدياً المعطف الأزرق الداكن الذي خاض به حملة إيطاليا. كان يراقب بصمت المرتفعات التي كانت تبدو كأنها ناتئة من خضم من الضباب، والتي كانت القطعات الروسية تتحرك فوقها على البعد. وكان يصيح السمع إلى لعلعة الرصاص التي انفجرت فجأة في الوادي. لم تتحرك عضلة واحدة من وجهه الذي كان لا يزال هزلياً حينذاك، بل ظلت عيناه اللامعتان تحدّقان في نقطة واحدة، لقد صدق حدسه، ووقع ما كان ينتظره، كان جزء من القطعات الروسية قد انحدر إلى الوادي باتجاه المستنقعات، بينما راح الجزء الآخر يتهيأ لإخلاء مرتفع براتزن، الذي كان يريد مهاجمته والاستيلاء عليه. لقد كان يتطلع إلى ذلك المرتفع تطلّعه إلى مفتاح العملية الحقة، كان يرى الوحدات الروسية تسير خلال الضباب شاكية الحراب، فتختفي إحداها في أثر الأخرى في محيط الدجنة الكثيف الرابض في أعماق المنحدر الذي كان يفصل بين المرتفعين المجاورين لقرية براتزن، لقد كانت المعلومات التي تلقّاها مساء أمس، والضجة التي أطلعه خفراؤه في الخطوط الأولى عليها،

وقعقة العجلات التي سمعها جنوده خلال الليل والحركات الكثيرة المتداخلة التي أمكن تمييزها في صفوف الروسين، كل ذلك كان يؤكد له بأن الحلفاء يعتقدون أنه بعيد عنهم، ويثبت أن الفيلق الذي كان يتحرك قرب براتزن إنَّ هو إلَّا وسط الجيش الروسي، فتأكد من أنَّ هذا الوسط كان شديد الضعف حتى ليعجز عن مهاجمته بنجاح، مع ذلك فقد ظل لا يوعز بالبدء بالهجوم.

كان ذلك اليوم بالنسبة إليه يومًا جليلاً مجيداً؛ لقد كان عيد تنصيبه الأول إمبراطوراً لفرنسا، لقد اختلس سويغات نوم قليلة كَفَتْهُ، فنهض بعدها نشيطاً خفيف الحركة. وفي مثل ذلك الاستعداد الفكري المشرق، الذي بدا له فيه كل شيء ممكناً وكل شيء ناجحاً، اعتلى بونابرت صهوة جواده وقصد إلى ساحة القتال. أمَّا الآن، فقد كان جامداً شاخص العينين إلى تلك المرتفعات التي كانت ظاهرة وراء الضباب وفوقه، ووجهه الجامد يشع بالسعادة والاطمئنان؛ سعادة العشاق الشباب عندما يجدون تشجيعاً من عشيقاتهم. وكان ماريشالاته منتظمين صفًّا وراءه لا يجرءون على تعكير سكونه. كان ينظر إلى هضبة براتزن تارةً، وتارةً أخرى إلى الشمس التي كانت تخرق الضباب.

ولما انقشع الضباب عن الشمس تماماً، وأنارت هذه البرية بضياؤها الوضاء، خلع نابليون قفازه عن يده البيضاء الرقيقة، وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة بالذات، لإصدار الأمر إلى ماريشالاته ببدء الهجوم. وجرى هؤلاء وضباطهم المساعدون في أنحاء مختلفة لإدارة العمليات، فلم تمض دقائق معدودة، حتى كانت قوى الجيش الفرنسي الرئيسية تتجه بسرعة نحو هضبة براتزن التي كانت الوحدات الروسية تخليها باستمرار لتتحدّر إلى أعماق الوادي ونحو اليسار.

الإمبراطوران

امتطى كوتوزوف جواده في الساعة الثامنة واتجه نحو براتزن، ولما بلغ الفيلق الرابع — الذي يقوده ميلورادوفيتش الذي جاء يحل محل فيلقي برزيبيسزوسكي ولانجيرون اللذين كانا في سيرهما المقررة — تبادل التحية النظامية مع جنود اللواء، وأعطى الأمر بالمسير دلالة على أن سيقود هذا الفيلق بنفسه، ولما وصل قرية براتزن توقف. كان الأمير أندريه في عداد الضباط المساعدين، وكان فريسة ذلك النوع من الانفعال المكبوت الذي يستحوذ على كل من يرى أخيراً أن الفرصة التي كان ينتظرها بفارغ صبر باتت على وشك السنوح، كان قانعاً بأن يوم «طولونه» قد أزم أو يوم «جسر آر كول»،^١ ما كان يعرف كيف سيقع ذلك الحدث الذي سيحقق حلمه، لكنه ما كان يشك قط في وقوعه، نسي خطته الاستراتيجية الخاصة التي أصبح تحقيقها ضرباً من المستحيل، وتبنى خطة فيروذر، وهو الذي يعرف المواقع أكثر من أي آخر من مواطنيه الروسيين، كان في تلك اللحظة يفكر في الصُدَف التي يمكن أن تُعرض، وفي مختلف الخطط التي ستساعده على التحقق من وجهة نظره وسرعة تقديره ودقته.

كان الرصاص يلعلع بين فرق غير منظورة في أعماق الوادي إلى اليسار بين ستر الضباب الكثيفة، ففكر بولكونسكي في سره: «إن المعركة كلها سوف تتركز هناك، فليظهر أي عائق ولأرسل على رأس وحدة أو جيش، وعندئذٍ سوف أندفع على رأس الجيش والعلم

^١ Areole ضاحية إيطالية قائمة على شاطئ نهر آلبون Alpone الذي يصب في نهر أديج، سكانها ٣٦٦٠ نسمة، كان نابليون قد هزم النمساويين هناك عندما استولى على جسر آر كول، وكان ذلك يوم ١٧/١١/١٧٩٦، معرضاً نفسه للخطر، ومتقدماً قناصته حاملاً العلم. (المترجم)

في يدي، وسأحطم كل ما يظهر أو يقوم في سبيلي.» لبهجته رؤية الأعلام ترفرف في مقدمة كل قطعة سائرة، غمغم وعينه تحصي الأعلام التي راحت تترى: «لعلني سأرسل حاملاً هذا العلم، وسيتاح لي أن أقود الوحدات تحت لوائه.»

خلف الضباب الليلي على المرتفعات صقيعاً راح يتحول إلى ندى تحت وطأة الحرارة، أما في الوادي، فقد كان البحر الأبيض الكثيف على حاله يعرقل السير، ويعترض نطاق الرؤية؛ مما جعل القوات الروسية لا تعرف العدد الذي يهاجمها وموقع المهاجمين على الضبط، وفي أعلى الهضبة، كانت السماء زرقاء داكنة، أما إلى اليمين فقد كان قرص الشمس الضخم واضحاً مرئياً، وإلى الأمام — على الشاطئ الآخر من خضم الضباب — كانت تقوم هضاب محرشة تُشكل مشارف مناسبة تصلح لاختباء العدو فيها، وقد أيد هذا الظن الأشباح التي كانت تُرى بشكل غامض نظراً إلى بُعد المسافة. أما إلى اليمين، فقد كانت قعقة العجلات وصدى الخطى الكثيرة المتزاحمة ووقع حوافر الجياد وبعض الانعكاسات الضوئية على الحراب؛ تدل على أنَّ الحرس يشق عباب الضباب التي كانت سرايا كاملة من الفرسان تسير فيه على اليسار وراء القرية. أما في المقدمة وفي المؤخرة فقد كانت التحركات مقتصرة على المشاة، كان كوتوزوف يراقب زحف القطعات وهو في مكانه عند مخرج القرية، كان يبدو متعباً منهوگاً سيء المزاج مغضباً، ولما رأى أن المشاة، التي اعترضها — ولا شك — معترض، توقف زحفهم دون أن يصدر إليهم الأمر بالتوقف، راح كوتوزوف يناقش الحساب، الجنرال الذي كان يقود فرق المشاة، هتف به: ماذا تنتظر بالله لترتب صفوف لوائك، وتجعله يدور حول القرية؟! هيا يا سيدي العزيز، أقصد يا صاحب السعادة، هل يتمدد الجنود على هذا الشكل على طول طريق عندما يسرون نحو العدو؟!

فأجابه الجنرال: لتعذرني سعادتكم العليّة، لقد كنت أفكر في تنظيم الصفوف عند الجانب الآخر للقرية.

هتف كوتوزوف وهو يضحك ضحكة خشنة: حقاً؟! إنك تريد أن تكشف جبهتك على مرأى من العدو؟! لعمرى إن هذا جميل!

— ما زال العدو بعيداً يا صاحب السعادة العليّة، إن الخطة ...

قال كوتوزوف مستنكراً بلهجة غاضبة: الخطة! من الذي قال لك هذا؟ تفضّل بالتقيّد بما تؤمر به.

- كما تأمرون.

وهمس نيسفيتسكي في أذن الأمير أندريه قائلاً: إن العجوز يا عزيزي متعكر المزاج مُخيفه.

وفي تلك الأثناء، اقترب ضابط نمساوي في حُلة بيضاء، والريشة الخضراء مغروسة في قبعته، ليقول لكوتوزوف على لسان الإمبراطور إن جلالته يسأل عمّا إذا كان الفيلق الرابع قد دخل في الحركة.

فالتفت كوتوزوف دون أن يجيب، ووقع بصره صدفة على الأمير أندريه، فهدأت ثائرته وخفت حدته، وكأنه أدرك أن ضابطه المساعد لم يكن على علاقة بكل تلك الحماقات التي تُرتكب. قال لبولكونسكي بلهجة هادئة وهو يُغفل عامداً الضابط النمساوي: اذهب يا عزيزي، وانظر إذا كان الفيلق الثالث قد اجتاز القرية أم لا، قل لضباطه أن يتوقفوا بانتظار أوامري.

ولم يكد الأمير أندريه يتحرك نحو الوجهة التي أوفده إليها حتى عاد فاستوقفه ليضيف مزمجرًا بين أسنانه مغفلاً النمساوي دائماً: وأسألهم إذا كان الرماة قد احتلوا مراكزهم، استعلم عما يفعلون، عما يفعلون!

هرع الأمير أندريه لأداء مهمته، ولما تخطى الأولوية السائرة، استوقف الفيلق الثالث، ولاحظ أن أيّ خط من خطوط القناصة لم يقيم بعدُ على طول جبهته ولا لحماية الفيالق السائرة. أظهر الكولونيل الذي يقود الفيلق الثالث بليغَ دهشته للأمر الذي يحمله الأمير، كان يعتقد جازماً أن قطعات أخرى كان ينبغي أن تتقدمه، وأن مرحلتين أو ثلاث مراحل على الأقل تفصله عن العدو، وكان محقاً في وجهة نظره؛ لأنه لم يكن يرى أمامه إلا امتداداً شاسعاً للسهل المقفر الذي يسبح في الضباب. وبعد أن أوعز إليه باسم الجنرال القائد الأعلى بتلافي الخطأ الواقع، عاد الأمير أندريه إلى مركزه. كان كوتوزوف في مكانه ذاك لم يبرحه، وقد استرخى جسمه الضخم على سرج الجواد، وكان يتثاءب مغمض العينين، أما القطعات فقد كانت هناك متوقفة وأسلحتها عند أقدامها.

قال كوتوزوف وهو يلتفت نحو الجنرال، الذي كانت ساعته مفتوحة في يده يتطلع إليها وكأنه يلّمح إلى أن لحظة الزحف قد أزفت: حسن، حسن، لدينا الوقت الكافي يا صاحب السعادة، لدينا الوقت الكافي.

وعاد يتثاءب من جديد، كانت وحدات الجناح الأيسر كلها قد انحدرت إلى الوادي حسب الخطة المرسومة.

وفي تلك اللحظة، تجاوبت وراء كوتوزوف هتافات تحية تُردُّها أصواتٌ بعيدة، أخذت تقترب شيئاً فشيئاً، فاستدل من ذلك على أن الذي تُوجَّه إليه تلك التحيات يتحرك بسرعة نحوه مستعرضاً الفيالق هدباً، فلما راح جنود كوتوزوف على رأسهم يرددون الهتاف، تراجع هذا قليلاً إلى الوراء، وألقى نظرة مستفسرة. شاهد كوكبة كاملة من الفرسان تتَّجه نحوه مسرعة قادمة من براتزن، ورأى أن ألبسة أولئك الفرسان غير موحدة، وكان فارسان يهدبان في المقدمة؛ أحدهما يرتدي حُلَّة سوداء، وفي قبعته ريشة بيضاء، يمتطي جواداً محجَّلاً مستولداً من أصل إنجليزي، والآخر في زيٍّ أبيض معتلياً صهوة جواد أدهم، كان الإمبراطوران قادمين مع أفراد حاشيتهما، أسبغ كوتوزوف على وجهه قسمات الجندي العجوز الذي يخضع للقوانين والأنظمة العسكرية، وصرخ يأمر الجنود الواقفين: استـ...عد!

تبدلت وضعيته، وتبدلت أساليبه، فغدت في طرفة عين أساليب المرءوس الذي لا يفكر ولكن يطيع. وباحترام واضح متزايد، اقترب من الإمبراطور يحييه.

بدت تلك الحفاوة البالغة على غير ما يتمنى الإمبراطور، لكن ذلك الشعور المقبض لم يكن إلا سحابة عابرة ظلت وجهه فترة وجيزة ثم تبدت، أشبه ببقية من ضباب خفيف في سماء شديدة الإشراق. كان الإمبراطور يبدو في ذلك الصباح أكثر نحولاً من مألوف عادته، ولعل لانحراف صحته في الأيام الأخيرة دخلاً كبيراً في هذا الشأن. لقد رآه بولكونسكي يوم استعراض «أولموتز»، وكان على حال أحسن من حاله اليوم، مع ذلك فقد كان ذلك المزيج من الفتنة الطاغية والجلال والعظمة متركزاً في عينيه الجميلتين الشهلأوين، وذلك الأسلوب المعبر مرتسماً على شفثيه الرقيقتين، وكان شبابه يطغى على كل هذه الصفات؛ ذلك الشباب البريء النبيل. صحيح أنه كان أقل هيبة مما كان عليه في أولموتز؛ فقد كان أكثر ابتهاجاً وحيوية.

كان وجهه متضرجاً بتأثير تلك الرحلة القصيرة على الجياد، فاستردَّ أنفاسه، والتفت يتفحص وجوه بطانته التي كانت تضم كل شاب متوقِّد الوجه مضرجه مثله، وكان هؤلاء يتحدثون فيما بينهم باسمين، وكان بينهم كزارتوريjsكي ونوفوسيلتسوف، والأمير فولكونسكي وستروجانوف، وعدد آخر؛ وكل منهم طُلِّق المحيا مرتدِّ ثياباً فاخرة، تفصح عن شرف محتده، وكلهم مبتهجون، على صهوات جياد مطهمة، مجهزة بسخاء وإسراف، ونظيفة كل النظافة. توقف أفراد الحاشية على مبعدة من الإمبراطور الذي لبث وحده إلى جانب زميله النمساوي الإمبراطور فرانسوا، وكان هذا شاباً ذا وجه طويل مشرَّب

بالحمرة، منتصباً فوق صهوة جواده الأدهم الأصيل، يسرّح الطرف ببطء حوله وعيناه تشعان بنظرات قلقة. نادى أحد مساعديه — وكان مثله في ثياب بيضاء — وطرح عليه سؤالاً، فقال الأمير أندريه في سره: «لا شك أنه يسأله عن ساعة مغادرتهم القصر»، ولم يستطع كتمان ابتسامة طافت على شفثيه حينما تذكّر مقابلته الشخصية معه. كان أفراد حاشية الإمبراطورين منتخبين من أشهر الفرسان الروسين والنمساويين المنخرطين في أسلحة الجيش، وكان بعض فرسان الركاب ممسكين بأعنة خيول البدل، وهي من صافنات الجياد التي تحفل بمثلها إصطبلات الإمبراطور.

كانت تلك الكوكبة المتألّفة من الفرسان الأنيقين، أشبه بالنفحة المنعشة التي تهبّ على الحقول وتدخل إلى غرفة كئيبة عبر النافذة المفتوحة. لقد كان لها أثر عميق في نفس أعضاء حزب كوتوزوف المتطيرين، الذين شعروا بنفحة من الشباب والحيوية والثقة في النجاح تتغلغل في دمائهم.

سأل الإمبراطور ألكسندر والجنراليسيم كوتوزوف بصوت حيّ، وهو يلقي نظرة امتثال على الإمبراطور فرانسوا: هه يا ميخائيل لاريونوفيتش، ألا تشرع؟ فأجاب كوتوزوف وهو يحيّيه تحية عميقة: إنني أنتظر يا صاحب الجلالة. قطّب ألكسندر حاجبه، وانحنى فوق الجواد مدلاً على أنه لم يسمع الجواب، فكرّر كوتوزوف الذي كانت شفثه السفلى ترتعد بشكل غير مألوف، لم يغب عن دقة ملاحظة الأمير أندريه: إنني أنتظر يا صاحب الجلالة، إن تركيز القطعات لم ينتهِ بعدُ يا صاحب الجلالة.

فهم الإمبراطور، لكن الجواب بدا على غير ما كان ينتظر، فهز كتفيه المقوستين، وألقى نظرة على نوفوسيلتسوف، وكأنه يشكو إليه كوتوزوف. أردف: ولكن يا ميخائيل لاريونوفيتش، لسنا في ساحة المناورات في تساريتسينو؛ حيث ينتظر المرء هناك إن لم يتم تجهيز كل القطعات لبدء العرض.

ومن جديد عاد ألكسندر يختلس النظر إلى الإمبراطور فرانسوا، وكأنه يدعو للانتباه على الأقل إذا كان لا يرغب في المشاركة في الحديث. غير أن الإمبراطور فرانسوا كان يجيل أبصاره بشرود دون أن يسمع شيئاً.

قال كوتوزوف بصوت قويّ رزين يبلغ مسامع الإمبراطور: إنني إذا كنت لا أبدأ يا صاحب الجلالة، فذلك لأنني في الحقيقة لست في ساحة المناورات، ولا في عرض عسكري. ومن جديد عادت الرعدة الخفيفة تقلّص تقاطيع وجهه.

تبادل ضباط البطانة نظراتٍ تنبئ باللوم والانعراج. كانت وجوههم تنطق قائلة: «مهما كان عجوزاً مسناً، فإنه ما كان يجوز له أن يتحدث بهذه اللهجة، كلاً، ما كان يجوز له ذلك.»

راح الإمبراطور يتفحص وجه كوتوزوف بدقة وعناية، منتظراً منه المزيد من التفسير، لكن هذا كان منحنياً بكل احترام، يبدو وكأنه ينتظر بدوره، وران الصمت حوالي دقيقة. أردف كوتوزوف بعد أن استعاد طابع الجندي القديم الذي لا يعرف غير الطاعة دون مناقشة ولا سؤال: على كل حال، إذا كنتم جلالتم تأمرون ... وهمز جواده ليصدر الأمر بالهجوم إلى سيلورادوفيتش.

ومن جديد تحركت الكتل البشرية؛ تحرك لواءان من فيلق نوفوجورود ليُمرَّ أمام الإمبراطور، وما لبث أن تبعه لواء من فيلق أبشيرون. وبينما كان هذا اللواء يسير تحت أنظار الإمبراطور وحاشيته، انقضَّ ميلورادوفيتش على صهوة جواده، بوجهه القرمزي، دون معطف، تزيّن صدره الأوسمة الكثيرة، والريشة الفاخرة الضخمة تثبت من قبعته، وأوقفه فجأةً أمام الإمبراطور وهو ينحني محيياً بحركة رشيقة عريضة واسعة.

قال له ألكسندر: ليحفظك الله يا جنرال!

فأجاب هذا بمرح وارتزان لم يمنع أفراد الحاشية الابتسام ضاحكين من ركافة لغته الفرنسية: لعمري يا صاحب الجلالة، سنعمل كل ما سيكون في وسعنا يا صاحب الجلالة. لوى ميلورادوفيتش عنان جواده بحركة فجائية، وتوقف وراء الإمبراطور على بُعد عدة خطوات. أما لواء الجنود، فقد مر أمام العاهل يستخف أفراداه الفرح لوجوده، وهم يخطرون بخطوات عسكرية جبارة تدعو للإعجاب.

نسي ميلورادوفيتش وجود الإمبراطور وهتف بجنوده: هيا يا شجعاني، أبرزوا مقدرتكم من جديد، إنها ليست أول مرة!

كان صوت الرصاص المتطاير وقرب وقوع المعركة، بالإضافة إلى جنوده اليواصل الذين خاض معهم معارك سوفوروف من قبل، قد أثارت حميته واندفاعه حتى غفل عن كل ما حوله.

وهتف الجنود يرددون: سنعمل ما في وسعنا.

شبَّ حصان الإمبراطور أثر ذلك الهتاف المدوي غير المنتظر الذي انبعث من مئات الحناجر. كان هذا الحصان الذي درج الإمبراطور على امتطائه في الاستعراضات في روسيا، يحمل سيده الآن إلى ساحة المعركة، ويحتمل لكز مهماز قدمه اليسرى، فينصب أذنيه عند سماع أصوات العيارات النارية كما كان يفعل في ساحة مارس — ساحة العرض — دون

أن يدري شيئاً عما تعنيه تلك الطلقات وجواره مع حصان الإمبراطور فرانسوا الأدهم. كذلك فقد كان كل ما كان فارسه يفكر فيه ذلك اليوم أو يقوله أو يشعر به، غير ذي أهمية بالنسبة إليه. التفت ألكسندر نحو أحد خلصائه، وأشار إلى لواء آبشرون الباسل، وأسّر له شيئاً وهو يبتسم.

تولون بولكونسكي

راح كوتوزوف وضباطه المساعدون يتبعون الفيلق مشياً على أقدامهم، يتقدمهم حاملو الغدّارات، فلما قطع خمسمائة متر، توقف قرب منزل منعزل مهجور، يبدو أنه كان خاناً قبل أن يهجره أصحابه. وكان ذلك المنزل قائماً عند ملتقى طريقين ينحدر كلاهما من الهضبة، وتغطيها الفرق الزاحفة في تلك الأثناء.

كان الضباب قد أخذ ينقشع، وأصبح بالإمكان رؤية قطعاعات عدوة على التل المقابل في غير وضوح، على بُعد نصف مرحلة. وكانت طلقات البنادق تزداد وضوحاً في الجهة اليسرى المطروقة من قبل الجنود السائرين إلى الهدف المقرر. تبادل كوتوزوف بضع كلمات مع الجنرال النمساوي، وكان الأمير أندريه متخلفاً قليلاً يرقبهما بانتباه. طلب من أحد زملائه الضباط أن يعيّر منظاره، هتف: انظروا، انظروا!

وأشار بيده، ليس إلى الأبعاد البعيدة، بل إلى أسفل الهضبة التي كانوا عليها، وأضاف: ها هم الفرنسيون!

تنازع المنظارَ جنرالان وعدد من الضباط المساعدين، وكلهم تبدلت أسارير وجوههم، وعلا الخوفُ قسماتهم. لقد كان العدو الذي اعتقدوا أنه بعيد عنهم منتصباً أمامهم بغتة، كانت الأصوات المتداخلة تقول: أهو العدو؟ ... مستحيل! ... لكن بلى، انظر، إنه هو ... ما معنى هذا؟ ...

استطاع الأمير أندريه أن يرى بعينه المجردة فيلقاً كبيراً من الفرنسيين، يتقدّم للقاء لواء أبشيرون على أقل من خمسمائة خطوة من المكان الذي وقف فيه كوتوزوف.

قال الأمير أندريه في سرّه: «ها إن الدقيقة الحاسمة قد أزفت!» همز حصانه، واقترب من كوتوزوف، هتف: يا صاحب السعادة العلية، ينبغي إيقاف لواء أبشيرون.

لكن المشهد كله في تلك اللحظة وسط سحابة كبيرة من دخان البارود، ولعل الرصاص قريباً جداً، وفجأة ارتفع صوت على بُعد خطوتين من الأمير أندريه يهتف بدعز: لقد قضي عليها أيها الفتيان!

كان ذلك الصوت أشبه بالأمر، حتى إنَّ كلَّ مَنْ سمعه لم يلبث حتى لاذ بالفرار. وقع ازدحام متزايد عكسي، متجه إلى حيث استعرض الإمبراطور الجنود الذين مرُّوا أمامه منذ خمس دقائق. وكان يستحيل إيقاف ذلك السيل العَرم، بل ويستحيل كذلك أن يتفادى المرء الانقيادَ إليه. أما بولكونسكي فكان يجهد على عدم البقاء في المؤخرة، ويجيل حوله نظرات حيرى دون أن يفقه ما يجري. أما نيسفيتسكي، فقد كان غاضباً ملتهب الوجه خارجاً عن طوره، يصيح بكوتوزوف قائلاً إنه إذا لم يتراجع فإنه سيسقط في يد العدو. غير أن كوتوزوف لم يبارح موقفه ولم يُجب، بل أخرج منديله من جيبه ليمسح الدماء التي كانت تلتخ وجهه، فشق الأمير أندريه لنفسه طريقاً محاولاً الوصول إليه. سأله وهو لا يكاد يسيطر على ارتعاد ذقنه من العصبية والانفعال: هل أنت جريح؟ فأجاب كوتوزوف: إن الجرح ليس في وجهي بل هنا!

وأشار بيده إلى الجنود الفارين، بينما كانت يده الأخرى تمسح الدم بالمنديل، هتف: أوقفوهم!

لكنه اقتنع على الفور باستحالة تنفيذ ذلك الأمر وبطلانه، فهمز جواده محاولاً بلوغ الجانب الأيمن، غير أن موجةً أخرى من الهاربين اكتسحته وأجبرته على العودة إلى الوراء. كان الجنود يفرون جماعات جماعات، بلغ من كثافتها وشدة اندفاعها أن كل من يقع في سبيلها كان مصيره السحق إذا حاول المقاومة. كان أحدهم يصيح: «انج بنفسك، أسرع، تحرك، ماذا تنتظر؟!» وآخر يطلق النار في الفضاء وهو مولُّ الأدبار، وثالث يضرب حصان كوتوزوف. فلما استطاع كوتوزوف ومن بقي معه من معاونيه — وكان عددهم قد تقلص إلى أقل من النصف — بمعجزة خارقة أن يتخلصوا من ذلك السيل الجارف، راحوا يستهدون بقصف المدافع القريب الذي كان يدوي في الجانب الأيسر، وكان بولكونسكي يسعى بكل ما أوتي من قوة أن يلحق بكوتوزوف. لاحظَ وهو في سبيل التخلص من الازدحام مدفعية روسية تقصف حشدًا فرنسيًا لا يني يهاجم مواقعها. كان عش المدفعية مقامًا في منتصف المسافة بين السفح والقمة، وكان الدخان يعلو في السماء كثيفًا. وفي الأعلى، شاهد فيلقًا من المشاة متوقفًا لا يحاول مدِّ يد العون إلى المدفعية، ولا يلتحق بالهاربين إلى المؤخرة. دفع الجنرال الذي كان يقود ذلك الفيلق حصانه نحو

كوتوزوف الذي كان مساعدوه لا يتجاوز عددهم الأربعة، وكلهم ممتنعو الوجوه ينظرون إلى بعضهم بصمتٍ.

هتف كوتوزوف بإعياء وهو في أقصى درجات الإعياء: أوقف هؤلاء السفلة! وأشار بيده إلى الهاربين، غير أن بَرَدًا من الرصاص تساقط في تلك اللحظة على الفيلق الجامد، وعلى كوتوزوف وحاشيته، وكأن الغاية منه الاستهزاء بالأمر الصادر. كان الفرنسيون الذين يهاجمون عش المدفعية، قد شاهدوا ذلك الفيلق وهم في هجومهم، فجعلوا منه هدفًا لنيران بنادقهم. قبض الجنرال على فخذه، وتساقط عدد من الجنود، أما حامل العلم، فقد أفلت العلم من يديه، فتأرجح هذا وهوى فوق بنادق الجنود الذين حوله، وانطلقت رصاصات أخرى دون أن يُصدر أي أمر إلى الفيلق المنتظر. زمجر كوتوزوف بلهجة يأس: آوه، آوه!

ثم أدار بصره حوله، وهمس بصوت مرتعد متهدج صادر عن قناعته بعجزه وهو في شيخوخته: بولكونسكي، بولكونسكي، ما معنى هذا؟! وأشار بإصبعه إلى الفيلق المبعثر والعدو المتقدم الزاحف.

لم يكد كوتوزوف ينهي جملته حتى كان بولكونسكي يقفز على ظهر جواده، وقد جرض بدموع الخجل والغضب، فاندفع نحو العلم يحملها، وصاح ملء رئتيه: إلى الأمام أيها الفتيان!

فكّر وهو يمسك بصارية العلم: «ها هي ذي اللحظة الحاسمة!» كان يسمع صفير الرصاص وأزيزه حول رأسه بغبطة حقيقية وابتهاج. هتف من جديد: هورّا!

وعلى الرغم من ثقل العلم الخفاق الذي كان يُربكه، فقد كان متأكدًا من أن الفيلق كله سيتبعه.

والواقع أنه لم يكد يقطع بضع خطوات منفردًا حتى لحق به جندي، ثم تبعه آخر، وبعده انحدر الفيلق كله وكأنه سيل يصخب منحدرًا نحو الأعماق. أخذ الجنود يُلقون صرخات الحرب ويعدون. ولم يلبثوا أن تجاوزوه، ولما كان العلم يترنح بين يديه، فقد اقترب أحد صف الضباط ليأخذه منه، غير أنه قُتل على الفور، فعاد الأمير يجر العلم من صاريته، ويتابع الزحف مع الفيلق. كان يرى المدفيعين الروسين أمامه وقد ترك بعضهم مدافعه، بينما استمر الآخرون يطلقونها، ورأى الفرنسيين يستولون على المدافع، فيحوّلون اتجاهها ليطلقوها على رجاله، لم يبقَ بينه وبين عش المدفعية إلا عشرون خطوة، والرصاص يتطاير حوله رأسه دون هوادة، بينما الجنود يزمجرون حوله ويسقطون،

لكنه لم يكن مبالياً بكل هذا، كان كل همه منصرفاً إلى المدفعية. تبَيَّن مدفعياً أحمر الوجه وعلى رأسه قلنسوة مائلة إلى الجانب، يتنازع ملكية جهاز تفريغ المدفع مع جنديٍّ من الأعداء، كانا كلاهما بادياً الغضب والزيغ، لا يدركان شيئاً مما يعملان.

تساءل الأمير آندريه: «ماذا يعملان؟ لماذا لا يفر «الأحمر» طالما أنه لم يُعد يملك سلاحاً؟ ولماذا لا يخرق الفرنسي صدره بحربته؟ لو أن الفرنسي فكَّر في حربته لَمَّا وجد الآخر متسعاً للفرار.»

وفي تلك اللحظة، أقبل فرنسي آخر وحربته على فوهة بندقيته، واقترب من المتخاصمين، كان مصير «الأحمر» الذي لم يكن حتى تلك اللحظة مدرِّكاً ما يفعل، يحاول بكل طاقته تخليص الجهاز من يد خصمه، غير أنَّ الأمير آندريه لم يرَ كيف انتهى النزاع، أحسَّ بأنه تلقَّى على رأسه ضربة من عصا أهوى بها بعض من حوله بكل ما في طاقة البشر من قوة. لم يكن الألم شديداً، لكن ما أثاره وأزعجه كان انصرافه بسبب تلك الضربة عن متابعة المشهد الذي كان يرقبه.

قال يحدث نفسه: «ما هذا؟ أأسقط؟ أتخونني ساقاي؟» وهو على ظهره من فوق الحصان. عاد ففتَّح عينيه آملاً أن يتابع النظر إلى العراك العنيف الدائر بين الفرنسيين والمدفعيين، متعطشاً لمعرفة ما إذا كان «الأحمر» قد قُتل واستُولي على «البطارية» أم لا، لكنه لم يُعد يرى شيئاً، لم يكن فوق رأسه إلَّا السماء، سماء غائمة، ولكن شديدة الارتفاع والتسامي، تخفق على أديمها غيوم قاتمة، فكَّر في نفسه: «يا للهدوء! يا للجلال! يا للسلام! يا له من فرق شاسع بين جَرِّنا المجنون وسط الهتافات والمعركة، والغضبة السخيفة التي كانت مستولية على رجلين يتنازعان عصا تنظيف المدفع، وبين مشية هذه الغيوم البطيئة على أديم هذه السماء العالية اللامتناهية! كيف لم ألاحظ هذا حتى اليوم؟ كم أنا سعيد لأنني اكتشفت ذلك أخيراً! نعم، إن كل شيء غرور وعدم، كان كذباً ونفاقاً باستثناء هذه السماء التي لا تحدُّها حدود. لا يوجد شيء مطلقاً، أيُّ شيء، باستثناء هذا ... ولعل هذا المشهد أيضاً ومضة خداعة، لعله لا يوجد شيء إطلاقاً، باستثناء السكون والراحة، والحمد لله العظيم!»

الفصل السابع عشر

مهمة روستوف

بلغت الساعة التاسعة والجناح الأيمن لم يدخل بعدُ في القتال رغم إلحاح دولجوروكوف ومطالباته. كان باجراسيون لا يشاطره الرأي، لكنه كان يريد نزع المسؤولية عن كاهله؛ لذلك فقد عرض عليه أن يرسل مَنْ يأتي بالأوامر من لَدُن القائد الأعلى، وكانت تفصل بين الجناحين مسافة لا تقل عن ثلاثة أميال، فإذا لم يُقتل الرسول — وهو احتمال ممكن — وإذا استطاع بلوغ مكان الجنرال القائد الأعلى — وهو أمر شديد الصعوبة — فإنه لا يمكن أن يعود إلى حيث كان الجناح الأيمن إلا حوالي المساء، ولم يكن باجراسيون يجهل ذلك.

راح يجيل في ضباط حاشيته نظرات كثيبة نعسة، فاجتذب انتباهه وجه روستوف الصبياني المشع بالانفعال والأمل؛ فانتقاه ليقوم بالمهمة المطلوبة. سأل روستوف ويده لا زالت على حافة خوذته بالسلاط: وإذا لاقيتُ صاحب الجلالة قبل التقائي بالجنرال القائد الأعلى؟ فأجابه دولجوروكوف دون أن يتيح لباجراسيون مجالاً للرد: يمكنك أخذ الأوامر من جلالته.

كان روستوف قد نال قسطه من الراحة، حينما انتهت نوبته حوالي منتصف ليلة أمس، فكان يشعر بالراحة والدعة والاطمئنان، ممثلاً حماسة مؤمناً في حسن مصيره، وباختصارٍ لقد كان في عقلية تجعل كل شيء هيناً وميسوراً في نظره. وكانت كل رغباته تتحقق ذلك الصباح، فهناك معركة كبيرة على وشك النشوب، وسوف يساهم في خوضها، وها هو ذا تابعاً لواحد من أكثر الجنرالات بسالة وشجاعة، وأخيراً ها إنه يكلف بمهمة إلى كوتوزوف، لعله يقابل فيها الإمبراطور كذلك. كانت الصبحية جميلة وحصانه ممتاز، وروحه مبتهجة نشيطة، فما إن تلقى الأمر، حتى اندفع

بحصانه مبتعدًا، وبعد أن حاذى في جريه جيش باجراسيون الجامد، بلغ المكان الذي كان فرسان أوفاروف يرابطون فيه استعدادًا لاشتراكهم في العمليات العامة. ولما تخطى هؤلاء، طرقتُ أسماعه ضجةً غير واضحة، لم تلبث أن وضحت، فإذا هي قصف عنيف من المدفعية تصحبه فرقة عالية تُحدثها طلقات البنادق، وكان القصف والرصاص يزدادان وضوحًا كلما ازداد اقترابًا.

كان جوُّ الصباح المنعش الهادئ الذي لم يكن يعكره منذ حين إلا صوت انفجارات متباعدة منفردة، وقد استحال في تلك اللحظة إلى إرعادٍ مستمر يتعالى فوق منحدرات براتزن؛ إرعاد مخيف تساهم فيه المدافع والبنادق، فتجعل من الجو جحيماً، وكانت أدخنة الانفجارات تتوالى على طول سفح الهضبة، بينما كانت الغيوم الكثيفة التي تخلفها طلقات المدافع تتناثر وتختلط بعضها ببعض، كان لمعان الحراب وسط ذلك الدخان يدل على كتل المشاة المتحركة، أما الخطوط الدقيقة التي كانت تتخللها، فقد كانت تدلُّ على مكان المدفعيين وصناديق ذخيرتهم الخضراء.

أوقف روستوف حصانه برهةً ليكون لنفسه فكرة عن المعركة الدائرة، لكنه أخفق في مسعاه، كانت كتل المخلوقات تتحرك وسط الأدخنة وستائر من الفرق تنتشر في الأمام وفي المؤخرة، ولكن مَنْ كان أولئك الجنود؟ وإلى أين كانوا ذاهبين؟ ماذا كانت نواياهم؟ يستحيل معرفة ذلك. غير أن هذا المشهد لم يثبُّ عزيمته، بل على العكس، لقد أضفى عليه مزيداً من الشجاعة والعزم، كان يهيب بالانفجارات قائلاً: «كرّر، كرّر! بمزيد من القوة، بمزيد من القوة!»

همز جواده، فبلغ به جانب الجبهة الذي كان الجنود فيه قد بدءوا في المساهمة في المعركة.

راح يتساءل: «ماذا سيحدث هناك؟ لست أدري، مع ذلك فإنني واثق من أن كل شيء سيكون على ما يرام.»

تجاوز فيلقاً نمساوياً، وبلغ المراكز التي يشغلها جنود الحرس، غير أنَّ هؤلاء كانوا يخوضون المعركة عند وصوله.

فكَّر في سرِّه: «ذلك أحسن! سوف أشاهد المسألة عن قرب.»

كان يسير في محاذاة الخط الأول تقريباً، فوقعت أبصاره على عدد من الفرسان ظهرُوا في تلك اللحظة، تبَيَّن أنهم كانوا بعض رماحي الحرس الذين كانوا عائدين من المعركة مفكِّكي الصفوف. ولما مرُّوا بجانبه، رأى بوضوح أن أحدهم كان مغطى بالدم،

فقال يحدث نفسه: «ماذا يهم!» ولما قطع بضع مئات من الخطوات، شاهد مفرزة كبيرة من الفرسان، كانت ثيابهم البيضاء تتعارض بشدة مع لون جيادهم الدهماء. بدأ ظهور تلك المفرزة على يساره، وقد انتشر أفرادها على خطٍ طويل يقطع الاتجاه الخلوي الذي كان يسير فيه، ولم يلبثوا أن اندفعوا نحوه هادبين، وكان روستوف يرغب في تحاشي الاصطدامات والاشتباكات ليقوم بمهمته؛ لذلك فقد أرخى لجواده العنان، فراح هذا يسابق الريح، لكن الفرسان بدورهم قاموا بحركة مماثلة، حتى إن بعضهم راح ينهب الأرض نهباً بجواده يطارده، وأصبح وقع الحوافر أكثر وضوحاً وصليل الأسلحة قريباً وراءه، بل إنه أخذ يتبين أشكال الفرسان، وأصبحت معالم وجوههم تتضح، عرف فيهم فرسان الحرس الذين كانوا يقومون بهجوم معاكس ضد الفرسان الفرنسيين.

ازدادت سرعتهم رغم أن جيادهم ما كانت مطلقة الأعنة، سمع روستوف ضابطاً يصيح: «هدباً سرا!» ورأى الفرسان يطلقون الأعنة لخيولهم الأصيلة، فتندفع هذه وكأن بطونها تلامس الأرض، وخشي روستوف أن تطأه سناك الخيل أو أن تقتحمه في هجومها، فراح يحث جواده على طول امتداد خط هجومهم، حتى إنه لم ينبج من الاصطدام بهم إلا بأعجوبة.

كان آخر فارس من الحرس الراكب، وهو عملاق ذو وجه منقوش بالجدي، يعلو وجهه الغضب لمراى هذا الفارس الغرير الذي جاء يعرض نفسه للسقوط بين حوافر جواده، وكانت نهاية روستوف محتومة — وقد شعر بنفسه بضالته إزاء هؤلاء الفرسان العمالقة — لولا أنه ظل محتفظاً ببداهته، فأهوى بسوطه بضربة قوية على وجه الجواد الهائج المندفع الذي يعتليه العملاق، فشب الحيوان على قائمته، وأرخى أذنه وأدار وجهه، لكن الفارس لم يمهله، بل همزه بشدة، فعاد على أحسن ما كان عدواً، ممدود العنق مشرع الذيل، لكن روستوف كان قد نجا.

لم يكن فرسان الحرس يتعدون عن روستوف حتى سمع هذا هتافات قريبة، ولما استدار رأى أن صفوفهم الأولى قد اشتبكت بصفوف العدو، ذوي شعارات الكتف الحمراء، ودَّ لو يتابع مشهد المعركة، لكن مدفعاً انطلق في تلك اللحظة وتبعه آخر، وعلت سحب الدخان، فحجبت الفرسان عن أنظاره، تردّد فترة وهو بين راغب في الانضمام إلى ذلك الهجوم ومُحجّم عنه، لقد كان هجوماً عنيفاً مستميتاً، تجلّت فيه البسالة النادرة، حتى إنَّ الفرنسيين أنفسهم لم يسعهم إلا الإعجاب بأعدائهم الفرسان، ولقد علم بعدئذ أن كل أولئك الميامين الأبطال، زهرة الفرسان وزينتهم، كل أولئك الشبان المتأججة حماساتهم؛ قد هلكوا في تلك المعركة باستثناء ثمانية عشر فارساً نجوا.

فكر روستوف: «لِمَ أغبطهم؟ سوف يأتي دوري، ولعلني أجد فرصة مواتية أشاهد فيها الإمبراطور لِحظة خاطفة!»

تابع طريقه، فلما اقترب من الحرس الراجل، لاحظ من تعابير وجوه الضباط التي يمتزج فيها الجلال بالعطف والخشونة العسكرية، أنهم كانوا هدفًا لنيران مدفعية العدو الهائجة، لقد كانت تعابير الوجوه أبلغ في معانيها ومراميها من أصوات القنابل وأزيز الرصاص المتطاير فوق الرؤوس.

وبينما كان يمر خلف أحد الفرق، سمع بعضهم يناديه: روستوف!

أجاب دون أن يعرف صوت بوريس: ماذا هناك؟

فقال بوريس وابتسامة السعادة التي تنطبع على وجوه الشبان الذين خاضوا نيران المعركة للمرة الأولى، مرتسمة على وجهه: هه، ها نحن أولاء في الخطوط الأولى!

توقف روستوف وقال: حقًا! وماذا بعد؟

فقال بوريس وهو شديد الانفعال: لقد دحرناهم!

وفجأةً حلا له أن يثرثر، فراح يقص عليه نبأ فيلق الحرس الذي ما كاد رجاله يبلغون الأماكن المخصصة لهم حتى شاهدوا جنودًا آخرين كانوا يحتلونها، لقد ظنوا بادئ الأمر أنهم النمساويون، غير أن أولئك الجنود الغرباء أمطروهم وابلاً من قذائف المدفعية، وعندئذٍ أدركوا أنهم إزاء العدو، ورأوا أنفسهم بغتةً في الخطوط الأولى وهم الذين ما كانوا يتوقعون لقاء العدو. غير أنَّ روستوف لم ينتظر نهاية القصة، بل همز جواده ومضى، صاح به بوريس: أين تقصد؟

— عندي مهمة إلى جلالته.

وُحِّل لبوريس أنه يقول إلى سعادته،^١ فقال: ها هو ذا!

وأشار إلى الغراندوق الذي كان على بُعد مائة خطوة منهما، مرتديًا خوذة الفرسان وسترتهم، مقطب الحاجبين، مرفوع الكتف، يصرخ محدثًا أحد الضباط النمساويين الذي كان شاحب الوجه في ثوبه الأبيض.

— لكن هذا هو الغراندوق! إن مهمتي محصورة بين الإمبراطور والجنرال القائد

الأعلى.

^١ أورد المترجم عن اللغة الروسية ملاحظة حول هذا الالتباس فقال إن كلمتي جلالته وسعادته متقاربتان لفظًا في اللغة الروسية، وهما: Vysstchestvo, Vélitchestvo.

وهمّ بالابتعاد، لولا أن هرع بيرج من الجانب الآخر، وكان على مثل انفعال بوريس وحماسه، هتف وهو يريه رسغه الملفوف بمنديل تَخَضَّب بالدم: كونت، كونت، لقد جُرحتُ في يدي اليمنى، مع ذلك فقد لبثت في الصف، إنني أمسك سيفي بيدي اليسرى يا كونت، لقد كان كل آل «فون بيرج» أبطالاً في أسرتي.

أضاف بيرج كلمات أخرى، لكن روستوف لم يسمعها؛ لأنه كان قد ابتعد فعلاً. وبعد أن قطع قفراً خالياً، قرر الابتعاد عن الصفوف الأولى ليتجنب الوقوع في طريق هجوم جديد، راح يسير على طول جبهة الاحتياطي من القطعات، مبتعداً أكثر فأكثر عن المكان الذي كانت المعركة فيه على أشدها، وفجأة رأى أمامه على مؤخرة الفرق الروسية، في المكان الذي لم يكن يحلم أن يجد فيه العدو، رأى العدو يُصلي الجنود الروسين ناراً حامية، تساءل: «ما معنى هذا؟ هل التفت العدو حولنا؟ مستحيل!» وارتعد فجأة خوفاً على مصير المعركة. أردف يقول لنفسه: «مهما بلغ الأمر، لا يمكن الإفلات منه! ينبغي أن أكتشف الجنرال القائد الأعلى هنا، وإذا كان كل شيء قد فقد وانتهى، فإن واجبي يدعوني إلى الموت مع الآخرين.»

كان في تلك اللحظة قد بلغ حدود قرية براتزان؛ حيث كانت تتزاحم أعداد هائلة مختلطة من مختلف القطعات الفارة المتقهقرة دون نظام ولا ترتيب. وكلما توغل في السير، ازداد شعوره القاتم بالنهاية المحزنة.

سأل في طريقه بعض الجنود الروسين والنمساويين الذين كانوا يقطعون الطريق لكثافة أعدادهم: ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ على من تطلق النار؟

فأجابه الفارُّون بالروسية والألمانية والتشيكية، وهم لا يدرون من أمرهم شيئاً: الشيطان وحده يعرف! لقد قُضي علينا! لقد فقدنا كل شيء!

وصاح أحدهم: الموت للألمان!

– ليحملهم الشيطان، أولئك الخونة!

بينما غمغم ألماني في لغته: إلى الشيطان هؤلاء الروس!

كان بعض الجرحى يجرُّون أنفسهم على جوانب الطريق. الشتائم والصيحات والزمجرات تُخلط في بعضها، فترتفع عنها جلبة هوجاء تُصم الآذان، وكان صوت البنادق قد خبا. وقد فهم روستوف أخيراً أن تلك الطلقات الكثيرة كانت متبادلة بين الروسين والنمساويين حلفائهم!

فكّر روستوف: «رباه، ما معنى كل هذا؟ وهنا، حيث يمكن للإمبراطور أن يراهم بين لحظة وأخرى؟ لا يمكن أن يكون ذلك ... إن هؤلاء ليسوا إلا عصابة من السفلة. لِأُسْرِعْ في الابتعاد عنهم.»

لم يفكّر قط في هزيمة ساحقة يصاب بها الروسيون، لقد شاهد القطعات الفرنسية متمركزة على هضبة براتزن، ورأى المدفعية العدو منصوبة تَصُبُّ وابل قذائفها على مواطنيه، لكنه لم يفكر في الهزيمة، كانت مهمته محصورة في إيجاد القائد الأعلى، فكان كلُّ همّه منحصراً في تلك المهمة، ولم يكن مباحاً له أن يقدرّ الواقع، بل إن ما كان يريد — ولا يستطيع — مجابهة ذلك الواقع.

الفصل الثامن عشر

هزيمة منكرة

كان روستوف يتوقّع إيجاد الإمبراطور والقائد الأعلى كوتوزوف في جوار براتزن، حسب المعلومات التي حصل عليها أثناء الطريق، لكنه لم يعثر على هذا ولا على ذاك، بل إنه لم يجد هناك أي قائد مسئول. اندفع بحِصانه الذي بدأت حوافره تؤله، محاولاً تخطّي زُمر الفارين من مختلف الأسلحة والجنسيات، لكنه كلما توغل في سيره، ازدادت الوحدات الهاربة كثافة. شاهد على الطريق الأيسر الذي استطاع بلوغه عددًا من العربات بين كبيرة وصغيرة ومن كل الأنواع، وحولها جنود روسيون ونمساويون بين سليمين من الجراح ومصابين، وكان هذا الحشر المخيف الذي تَمُوج فوقه الأصوات والصرخات المتنافرة في صخب مربع، يختلط مع مشهد العدو المتمركز فوق هضبة براتزن وسفوحها، الذي يمطر الروسيين وحلفاءهم وابلًا من حممه، فيعطي صورةً تحطّم المعنويات، وتَغمر النفوس باليأس.

كان روستوف يسأل الجنود عبثًا: أين الإمبراطور؟ أين كوتوزوف؟ وأخيرًا استطاع أن يُطبّق على ياقة أحد الجنود ليرغمه على الجواب، فقال الجندي مازحًا، وهو يحاول التملص من قبضته: آه يا أخ! لقد كانت اللعبة حامية حتى إنهم هربوا جميعًا!

شعر روستوف أن ذلك الجندي كان ثملًا، فتركه ليتصدى لفارس كان يبدو عليه أنه تابع أو خفير في خدمة إحدى الشخصيات البارزة. ضيّق عليه روستوف بالأسئلة، فأجاب الفارس أن الإمبراطور قد جُرح جرحًا بليغًا أدّى إلى حمله في عربة أُسجِي فيها على صدره، وأنّ العربة درجتْ على هذا الطريق منذ ساعة كاملة.

فقال روستوف معترضًا: إنك مخطئ، إنك الجريح ليس الإمبراطور ولا شك.

فقال الرجل وعلى شفثيه ابتسامة الواثق: كيف أُخدع، وقد شهدته بنفسي، أعتقد أنني لا أعرف الإمبراطور! لقد شهدته مرات عديدة في بيترسبورج على ما أعتقد، لقد كان شاحباً كالأموات، لقد مرّت العربّة أمامنا يقطرها أربعة أجياد دهماء، كان ينبغي أن ترى ذلك. إنني أعرف خيول القيصر، وأعرف سائق عربته إيليا إيفانيتش على ما أعتقد، لعل إيليا هذا يقود عربّة غير عربّة القيصر، أو يحمل في عربّة القيصر شخصاً آخر غيره. أفلتت يد روستوف عنان الجواد، راح يتابع طريقه، وفجأة ناداه أحد الضباط الجرحى وقال له: عمن تبحث؟ عن القائد الأعلى؟ لقد قُتل. نعم لقد أصابته القذيفة ملء صدره وهو على رأس فيلقنا.

فصح ضابط آخر قول زميله: لم يُقتل بل جُرح.
فسأل روستوف: لكن من الذي قُتل أو جُرح؟ أهو كوتوزوف؟
— كلاً، ليس كوتوزوف، بل الآخر ... آه، لقد نسيت اسمه ... على كلّ هذا غير مهم؛ إذ لم يبقَ منه إلا الأشلأء. هل ترى تلك القرية هناك؟ اذهب إلى هناك وستجد القادة كلهم مجتمعين.

وأشار الضابط إلى قرية جوستيراديك وابتعد.
سار روستوف الهويّنا على حصّانه وهو مرتبك متردد، تُرى هل جُرح الإمبراطور؟ هل خسرنا المعركة؟ ما كان يصدق كل هذه الأقوال، وراح يسير نحو القرية التي كان جرس كنيستها يرتفع فوق الأبنية على البُعد، ما فائدة العجلة؟ ماذا كان يستطيع أن يقوله الآن للإمبراطور أو لكوتوزوف؟ هذا إذا افترضنا جدلاً أنهما كانا سليمين!
هتف به أحد الجنود: انعطّف من هنا نبالتك، إن المكان خطير حيث تسير، وستُقتل حتماً.

فقاطعه آخر: ماذا تقول؟ أين يقود هذا الطريق؟ إن هذا الذي يسلكه أقرب من ذاك! وبعد فترة تردد، توغل روستوف في الطريق الذي أنبأه الجندي بأنه سيُقتل إذا سار عليه، قال يحدث نفسه: «ماذا يهمني أن أُقتل الآن؟ إذا كان الإمبراطور جريحاً، فلم أُوَفّر نفسي وأحميها؟»

كانت الأرض التي يجتازها في تلك اللحظة، هي التي مُني عليها الفارّون من جبهة بارتنز بأفدح الخسائر، ولم يكن الفرنسيون يحتلونها بعد، رغم أن الروسيين، أو على الأصح، الأحياء من الروسيين والجرحى الذين سمحت لهم جراحهم بالانتقال، قد أخلّوها منذ زمن طويل. كانت جُثث القتلى مبعثرة على عشرة أو خمسة عشر متراً على سفح

الهضبة، وكأنها حشائش نابتة في أرض خصبة، وكان الجرحى الخطيرون يزحفون مثنى أو ثلاث وهم يطلقون زمجرات وصيحات مصطنعة أحياناً، كانت تترك في نفس روستوف أسوأ الأثر. دفع جواده إلى السير خبياً ليتفادى رؤية هؤلاء المصابين المتألمين، وشعر بالخوف يستولي على فؤاده؛ لقد كان يخشى على شجاعته أكثر مما كان يخاف على حياته. كان في حاجة ماسةً إلى تلك الشجاعة التي كانت تزايله كلما وقع بصره على جماعة من أولئك المناكيد.

عزفَ الفرنسيون عن قصف ذلك الحقل المغطى بالجثث بعد أن خلا من كل ما يستحق القصف والضرب، لكنهم ما إن رأوا الضابط المساعد حتى سدّوا نحوه أحد المدافع، وأطلقوا عليه عدداً من القذائف. أحدثَ صفيحُ القنابل ورؤية الجثث المبعثرة لونا من الذعر في نفس روستوف الذي أحسَّ بإشفاق على نفسه، تذكّر رسالته الأخيرة إلى أمه وجوابها عليها، فكّر في نفسه: «تُرى ماذا كانت تقول لو شاهدتني هدفاً لهذه المدافع؟!». كانت القطعات الروسية التي شاهدها في «جوستيراديك» تفر كغيرها من ساحة المعركة، ولكن في شيء من النظام. وكانت قنابل الفرنسيين لا تصل إلى هناك، وأصوات البنادق تصل مكتوفة مختلطة، كان كل المحتشدين هناك على مختلف رتبهم يعلنون بصوت مرتفع أن المعركة قد انتهت بخسرانهم، ولم يستطع أحد أن يعيّن لروستوف مكان كوتوزوف ولا مقام الإمبراطور. كان بعضهم يؤكد له أنَّ الإمبراطور جريح، والبعض الآخر يكذبون تلك الشائعة قائلين إنَّ الرجل الشاحب الذي حملته عربة الإمبراطور لم يكن إلا الكونت تولستوي، ماريشال الحاشية الملكية الأكبر الذي رافق سيده إلى ساحة المعركة. وزعم أحد الضباط أنه شاهد شخصية كبيرة على يسار القرية، فاتجه روستوف حيث أشار الضابط ليريح ضميره. ولما قطع مرحلة صغيرة، وتجاوز آخر فلول الجنود الروسين، شاهد فارسين يقفان قرب حفرة تحد بستان خضار. كان أحدهما يضع على رأسه قبعة غُرست فيها ريشة بيضاء، بدت أليفة في نظر روستوف، والآخر كان مجهولاً منه، يمتطي صهوة جواده محجل القوائم بديع الشكل، خُيل لروستوف أنه شاهده من قبل في مكان ما. لكز هذا الأخير جواده، فقفز فوق الحفرة بسهولة، وإن كانت قائماته الخلفيتان قد احتكَّتا قليلاً بحافتها، ثم استدار إلى حيث كان ذو الريشة البيضاء، واجتاز الخندق من جديد ليحدثه بلهجة شديدة الاحترام، قدّر روستوف أنه يدعوه إلى تخطي الخندق، غير أنَّ هذا — وكان روستوف شاخصاً بأبصاره إليه بدافع غريزي — أبدى إشارة من يده ورأسه تدل على رفضه الدعوة. وعندئذٍ فقط، أدرك روستوف أنه إزاء

إمبراطوره المعبود، الذي كان يحس بألم شديد للمصير السيئ الذي بلغت إليه قواته في هذه المعركة.



قد جرح الأمير آندرو.

لكنه عاد يقول لنفسه: «ولكن مستحيل، كلا، لا يمكن أن يكون الإمبراطور وحيداً هنا، في هذا السهل المقفر!» وفي تلك اللحظة، أدار ألكسندر رأسه، فشاهد روستوف تقاطيع وجهه النبيل، المنقوشة على صفحة ذهبية، وعرفها. لقد كان الإمبراطور ممتقع الوجه، لكن شحوبه وخديه الغائرين وعينييه الخابيتين؛ كانت تجعل وجهه أشد فتنة، وأكثر وداعة ورأفة. ورأى روستوف بسرور بالغ أنه لم يكن جريحاً، فكان سعيداً برؤيته سليماً. شعر أنه يستطيع أن يخاطبه مباشرة، بل إنه يجب أن يخاطبه ليحمل إليه رسالة دولجوروكوف.

ولكن كما أنَّ العاشق يرتعد ساعة اللقاء، ويغلبه الخوف فيطغى على إحساساته الحادة الجارفة التي طالما استقرت في أعماق نفسه، ويجعله يلقي حوله نظرات مذعورة شاردة، باحثاً عن من يساعده ويدعمه ويمنحه فرصة يسترد فيها روعه، كذلك كان روستوف

في تلك اللحظة التي تحققت فيها أعلى أمنياته وأعزها على نفسه، لقد كان يخشى الاقتراب من الإمبراطور، ويقنع نفسه بألف حجة وحجة أن سلوكه سيكون معيباً غير صحيح، بل ويستحيل تقبُّله.

كان يهمس لنفسه: «هه! ماذا؟ إنني سأبدو أشبه بذلك الذي استغل فرصة وجوده وحيداً محطَّم المعنويات! لا شك أنه سيتألم لرؤية غريب يقترب منه في هذه اللحظات الكئيبة، ثم ماذا أستطيع أن أقول له، وأنا الذي تكفيني نظرةً منه لتسلبني القدرة على النطق والسلطة على الأعصاب؟!»

لم تحضره جملة واحدة من الجمل التي هيأها من قبل لمثل هذه المناسبة، عندما كان يفكر في لقاء الإمبراطور وتوجيه الكلام إليه، خصوصاً وأن معظم تلك الجمل كانت موضوعة لتلائم مناسبات تختلف عن هذه كل الاختلاف، كانت متعلقة بساعات النصر والمجد، وبصورة خاصة باللحظات التي سيتقبل فيها تهانيَ مليكِهِ، وهو جريح تحت أقدامه جرحاً بليغاً، فيعرب له بدوره عن حبه العميق وتعلُّقه الشديد الذي برهن عليه بالتضحية بحياته.

وأردف يقول: «ثم ما هي الأوامر التي سأطلب إليه إصدارها بخصوص الجناح الأيمن والساعة الآن الرابعة مساءً والمركة قد ضاعت؟! كلاً، لا يجب أن أقترِب، ليس من حقي أن أُلْقَ تأملاته وتفكيره، إنني أفضل الموت ألف مرة على أن أُوحي إليه فكرة سيئة عني، أو أن أراه يصوب إليَّ نظرةً عدم رضاء.» فلما بلغ روستوف هذا الحد من تقريره، ابتعد واليأسُ يملأ قلبه، وهو يلتفت بين الحين والآخر إلى حيث كان يقف إمبراطوره المفدَّى وهو لا يزال متردداً جامداً في موقفه.

وبينما كان روستوف يعود كَسِيرَ الفؤاد حزين النفس وهو يفكر على ذلك الشكل، مرَّ من هناك رئيسُ يدعى فون تول، فاقترِب من الإمبراطور عارضاً عليه خدماته، وساعده على تخطي الخندق راجلاً، وكان ألكسندر مرغماً — بسبب انحراف صحته — على نيل قسط من الراحة، فجلس في ظلال شجرة تفاح، بينما لبث فون تول واقفاً بالقرب منه، شاهد روستوف كلَّ هذه الحركات عن بُعد والمرارة ملء حنجرتِه، ورأى فون تول يحدث الإمبراطور بحرارة وطلاقة، ورأى هذا الأخير يمدُّ إليه إحدى يديه، بينما حجب بالأخرى وجهه؛ ليخفي عن عينيه مرأى الدموع التي سالت على خديه ولا شك.

فكر روستوف: «تأمل، إنني كنت سأحل محل هذا في أداء هذه الخدمة!» كان الغضب يعصف بكيانه، حتى إنه كان على وشك البكاء تحناناً على الإمبراطور المرزوء، تابَعَ طريقه

وهو لا يدري إلى أين يتجه، كان يأسه يزداد عمقاً كلما اعترف بينه وبين نفسه بأن ضعفه الشخصي أدّى إلى فقدان الفرصة الجوهرية التي كان يتلهف إليها.

كان يستطيع أن يقترب من الإمبراطور، بل كان يجب عليه أن يقترب منه، لقد كانت تلك هي المناسبة الفريدة التي تمكّنه من إظهار تفانيه في سبيل مليكه، لكنه أفلت الفرصة من يده. قال يحدث نفسه: «ماذا عملت؟!» لوى عنان جواده وعاد هدباً إلى حيث وجد الإمبراطور، لكنه لم يرَ هناك أحداً قرب الخندق ولا حوله، كانت عربات النقل والأمتعة والمهمات تملأ الطريق على رحبه، أنبأه أحد الجنود أن كوتوزوف وأركان حربيه كان على مقربة من القرية التي يسيرون بحذاءها، فتبع روستوف الموكب الزاحف.

كان «سائس» كوتوزوف يقود خيولاً مسرجة، ويسير في طليعة الموكب، وكان عجوز من الخدم يسير وراءه على ساقيه الملتويتين، لا يفصل بينهما إلا عربة نقل.

هتف السائس: تيت، هه، تيت!

فأجابه الرجل العجوز ذو القبعة الوحيدة الجانب والسترة المبطنة بالفراء والساقين الملتويتين، ببساطة وسلامة طوية: ماذا تريد؟

— اذهب للقاء حبيبتك!

فزمجر العجوز وهو يبصق من الغيظ: أيها الغبي!

وراحا يتابعان طريقهما صامتين، ولكن الدعابة عادت تتكرر والعجوز يؤخذ بالنداء، فلا يتحاشى الجواب.

لما بلغت الساعة الخامسة مساءً، كانت المعركة قد ضاعت على كل النقاط والجبهات، استولى الفرنسيون على أكثر من مائة قطعة من قطع المدفعية، واستسلم «برزيبيسزوسكي» وفيلقه، وخسرت الفيالق الأخرى أكثر من نصف رجالها، فراحت تنسحب بفوضى وصخب، بينما كانت بقايا فيالق لانجيرون ودوختوروف تتزاحم بجنون واضطراب على شواطئ مستنقعات أوجويزد وعلى مداخل السدود.

ولم تمض ساعة أخرى، حتى كانت المدفعية الفرنسية تستهدف هذا المكان وحده، كان الفرنسيون حينذاك يقصفون الجيوش الروسية المنهزمة من أعشاش مدفعيتهم التي نصبوها على مرتفعات هضبة براتزن.

وفي الخطوط الخلفية، كان دوختوروف وآخرون يحاولون إعادة ترتيب بعض الألوية ليوقفوا قصف مدفعية العدو ومطاردة الفرسان الفرنسيين الفلول الهاربة، وكان الظلام قد أقبل. وعلى السد الضيق؛ سد أوجويزد، حيث أمضى الطحان العجوز ذو القلنسوة القطنية سنوات طويلة يصطاد السمك بهدوءٍ بسنارته، بينما كان حفيده يداعب الأسماك

الفضية الحبيسة في صفيحة من التنك، وهو حاسر الكم، على ذلك السد الذي عَبَرَ فوقه المورافيون بستراتهم الزرقاء وقلنسواتهم المصنوعة من القطيفة، طيلة أعوام طويلة، يقودون عرباتهم المحملة بالقمح الذي كانوا يعيدونه وقد استحال دقيقاً أبيض، وعلتْ أثوابهم طبقةً خفيفة من الطحين بالمثل غَطَّتْ رءوسهم وأقدامهم؛ على ذلك السد بالذات، كانت تتزاحم في تلك الساعة عشرات من عربات النقل وجَرَّ المدافع، تسحق عجلاتها الصماء رجالاً شوَّه الرعب وجوهمهم وشل حركتهم، وتعجن سناكُ الخيول جثث القتلى والمحترزين، ويتقاتل الجنود فيما بينهم سعيًا وراء الفوز بالعبور، الذي ما كان يتم قط؛ لأن القتلة كانوا بدورهم يقتلون، ولَمَّا يتجاوزوا بعدُ خطوات معدودات.

وبين كل عشر ثوانٍ، كانت قذيفة تشق الفضاء لتتفجر وسط ذلك الازدحام المخيف، فتقتل وتجرح وتُبْعَثُ مئات من الأنفس وتُلطخ بالدماء ثياب العشرات من الناجين، كان دولوخوف — وقد أُعيدت إليه رتبته السابقة — يسير على قدميه على رأس قبضة من رجاله الناجين، والكولونيل قائد السرية على صهوة جواده، وكان هذا النفر القليل هو كل مَنْ بقي على قيد الحياة من فيلق دولوخوف. كانوا يُدفعون دفعًا من قبل كتل الفارِّين نحو مدخل السد، اضطروا إلى التوقف؛ لأن حصاناً كان قد سقط تحت عجلات عربة مدفع، وكان الجنود المذعورون يحاولون إخراجَه ليفسح لهم طريق العبور، فسقطت قذيفة وراءهم، فقتلت رجلاً وجرحت آخر، فسقط هذا إلى الأمام، فَتَحَضَّبَتْ ثياب دولوخوف بالدماء، واندفعت الزمر بمجهود خارق خطوات إلى الأمام، لكنها لم تلبث أن توقفت. كان كُلُّ منهم يقول لنفسه: «مائة خطوة أخرى وبعدها الخلاص، لكننا إذا لبثنا هنا دقيقتين ضعننا!»

استطاع دولوخوف المحصور في صميم الازدحام وسط السد، أن يصل إلى الجانب الآخر بعد أن طرح جنديين أرضاً، وهناك ترحلق على جليد المستنقع الذي كان يغطي معظم سطحه.

صرخ وهو يقفز قفزات خفيفة فوق الجليد الذي كان يتحطم تحت وطأة أقدامه: هاتوا المدفع إلى هنا، إن الجليد هنا يحتمل الثقل، هاتوه!

كان سطح المستنقع يحمل ثقل جسمه، لكنه كان واضحاً أنه سيتحطم تحت ثقله بعد قليل، فكيف إذا أضيف إليه ثقل مدفع وعدد كبير من الجنود! راح الجنود المجتمعون قرب الشاطئ ينظرون إليه دون أن يستجيبوا لأمره، وكان الجنرال منتصباً عند مدخل السد فوق صهوة جواده، فرفع يده يحيط بها فمه محاولاً التحدث إليه، غير أن قذيفة

مرت فجأةً على ارتفاع خفيض، حتى إن كل الموجودين اضطروا إلى إحناء رؤوسهم لتفاديها، وارتفع صوت تخبُّط مكتوم، وشُهد الجنرال يسقط مع حصانه في بحيرة من الدم، لم يقلعه أحد نظرة، ولم يفكر أحد في رفعه.

صاحت ألوف الأصوات بعد إصابة الجنرال دون أن يعي أصحابها شيئاً مما يقولون: على الجليد، على الجليد! هاتوا المدافع! هل أنت أصم؟! إلى الأمام، إلى الأمام، فوق الجليد! وكان المدفع الذي يطلب الجنود المخبولون من الذعر سحبه فوق الجليد، قد وصل إلى مدخل السد، وكان الجندي الذي يقود عربته محجماً عن تلك المغامرة، غير أن الجنود الفارين كانوا متجمهرين بالمئات على ضفاف المستنقع المتجمد، اندفع أحدهم فوق الجليد، فتحطم تحت وطأة قدمه، ولما حاول تخليصها، سقط حتى وسطه في الماء المتجمد، وتوقف الصف الأول متردداً، لكن الأصوات ظلت تصيح من وراء قائلة: «على الجليد! لماذا تتوقفون؟ إلى الأمام!» وهكذا لم يجد سائق عربة المدفع بداً من السير، خصوصاً وأن مئات الأيدي أخذت تلوح، وتحث الجواد على السير، مصحوبة بزمجرات الفزع والرعب العنيف الذي كان مستولياً على كل النفوس، جَلَدَ الجنودُ الأقربون جوادَ العربة ليرغموه على التقدم، وقرَّروا أخيراً مغادرة الضفة والسير فوق الجمد، فتقدموا ولكن لم تلبث أن ارتفعت فرقة هائلة مكتومة، ندت عن الجليد المتحطم، وسقط أربعون رجلاً في الماء وهم يجرون معهم إلى الهاوية رفاقهم الذين تشبثوا بهم؛ ليستعينوا بهم على النجاة من الغرق.

وراحت قذائف المدفعية تترى وتسقط على الجليد وفي الماء، وغالباً على الكتل البشرية المتزاحمة فوق السد وعلى ضفاف المستنقع وجوانبه.

الفصل التاسع عشر

بعد المعركة

لبث الأمير أندريه ملقى فوق هضبة بارترن في المكان الذي سقط فيه والعلم في يده، وكان الدم ينزف من جراحه بغزارة، وهو يزمجر متألماً بصوت ضعيف ناحب دون أن يعي.
توقف عن الأثين مساءً، وفقد رشده، لكن ألماً حاداً في رأسه ما لبث أن أعاده إلى الصواب، وأخرجه من خدره.

كانت أول فكرة واثته عند يقظته هي: «أين تلك السماء العميقة البعيدة التي لم أكن أعرفها من قبل والتي اكتشفتها اليوم؟» ثم تساءل: «وهذا الألم أيضاً، أما كنت أجهله؟ نعم، لقد كنت أجهل كل شيء حتى الآن، إطلاقاً كل شيء. لكن أين أنا؟»

تناهى إلى سمعه وقع حوافر جياد مقتربة فأصغى، وصكت أذنه عبارات فرنسية، ففتح عينيه، كانت تلك العميقة التي تسبح الغيوم العالية فوق صفحتها، وتضفي على الجو لوناً لازوردياً ممتعاً، قائمة فوق رأسه، لم يُدر رأسه ليرى نوع الأشخاص الذين كانوا يقتربون من مكانه، رغم أن أصواتهم كانت تدل على أنهم توقفوا قريباً منه.

كان أولئك الفرسان هم الإمبراطور نابليون واثنان من ضباطه المساعدين، وكان يقوم بجولة في ساحة المعركة متفقداً، وبعد أن أعطى أوامره بدعم المدفعية التي كانت تقصف السد والجنود المتراصين حوله، راح يتفحص وجوه القتلى والجرحى الذين تركوا في ساحة المعركة.

قال وهو يرى أحد القناصة الروسيين ملقى على الأرض ووجهه إلى الأسفل، مسوّد العنق وأحد ذراعيه ممتد قليلاً ومتصلب: إنهم من أجمل الرجال!

وجاء أحد الضباط المساعدين موفداً من قبل قيادة المدفعية التي تقصف أوجويزد، فقال: إن ذخيرة المدافع قد نفدت هناك يا صاحب الجلالة.

فأجابه نابليون: قدّموا مدافع الاحتياط.

خطا بضع خطوات وتوقف قرب الأمير آندرية، الذي كان ممدداً على ظهره قرب صارية العلم الذي أخذ الفرنسيون القماش عنها، وقال وهو يتأمل وجه بولكونسكي: إنها مينة جميلة!

فهم بولكونسكي أن الأمر متعلق به، وأن نابليون يتحدث عنه، لقد سمع منذ حين صوت أحدهم يخاطب المتكلم الحالي بلقب «صاحب الجلالة»، لكن الكلمات كانت تصل إلى أذنيه على شكل دندنة خافتة، أو طنين ذبابة، لم يُلْقَ بالاً إليها، ولم يهتم بفهم ما يقال ومعرفة ما يدور حوله، بل إنه فقد قوة الذاكرة بعد حين، كان يحس بنار تلتهب في رأسه، ويشعر أن الدم يغادر جسمه، ويتأمل السماء المرتفعة البعيدة، العالية المتسامية الخالدة، كان يعرف أن نابليون — بطله المفضل — موجود بالقرب منه، لكن نابليون بدا له في تلك اللحظة شديد الضآلة، شديد التفاهة، إذا قيس بالمأساة الصاخبة الأليمة التي كانت تمثل في أعماق روحه، بين روحه والسماء الصافية ذات الغيوم السابحة. لم يعد يهتم لمعرفة أولئك الذين كانوا مُنَحْنين فوقه يتحدثون عنه، لكنه كان مسروراً لأنهم لم يتجاوزوه، كان يرغب في أن يُمدوه بعون وغوث ليعيدوه إلى تلك الحياة التي بدت له رائعة الجمال، منذ أن اكتشف أخيراً عقيدته الجديدة، جمع قواه — أو على الأصح ما تبقى من قواه — فاستطاع تحريك ساقه، وانطلقت أنه خافتة ملاً صوتها الناحب نفسه تحناً.

قال نابليون: آه إنه حي! ليُحمل هذا الشاب وليودع في عربة الإسعاف. واستمر الإمبراطور في سيره ليستقبل المارشال؛ لان Lanes الذي كان يتجه نحوه باسمًا وقبعته في يده، هنأه الإمبراطور بفوزه وانتصاره الساحق. لم يحتفظ الأمير آندرية بذكريات ما حصل له بعد أن أمر نابليون بنقله على عربة الإسعاف. لقد سبب له نقله على المحفة واختبار عمق جراحه إغماءً طويلاً، فلم يعد إلى وعيه إلا عند المساء، عندما كانوا ينقلونه إلى المستشفى في صحبة عدد آخر من الضباط الروسيين الجرحى. شعر خلال الرحلة أنه أحسن حالاً، واستطاع أن يجيل بصره حوله، وأن يتلفظ ببعض الكلمات.

قال أحد الضباط الفرنسيين، وكان يرافق موكب الجرحى: ينبغي التوقف هنا. فكانت هذه أولى الكلمات التي سمعها بولكونسكي بعد أن استعاد الوعي، أضاف الضابط: سيمر الإمبراطور من هنا بعد حين، ولا شك أنه سيُسَرُّ لرؤية هؤلاء الأسرى من الجرحى البارزين.

فقال ضابط آخر: إنَّ لدينا الآن المزيد من الأسرى، حتى إن الإمبراطور سيتذمر لكثرتهم؛ لدينا كل الجيش الروسي تقريباً.

فأجاب الضابط الأول: صحيح، لكن هذا (وأشار إلى ضابط في ثوب أبيض تابع للحرس الراكب) كان يقود — على ما نرى إلينا — فيلق حرس الإمبراطور ألكسندر كله. عرف بولكونسكي أن ذلك الضابط الجريح كان ربنين الذي كان قد صدفه مرات في الأوساط الراقية، وكان إلى جانبه ضابط آخر من سلاح الحرس في العشرين من العمر أو تنقص قليلاً.

اقترب نابليون هدباً، وأوقف جواده بالقرب منهم، سأل عندما وقع بصره على السجناء الجرحى: من هو الأرفع رتبة؟

فأجيب أن الزعيم الأمير ربنين.

سأله نابليون وهو يلتف نحوه: أأنت رئيس الحرس الراكب التابع للإمبراطور ألكسندر؟

— لقد كنتُ أقود كوكبة من ذلك الحرس.

— لقد قام فيلقك بواجبه كاملاً.

— إن ثناء عسكريٍّ كبيرٍ خيرٌ مكافأةً للجندي الصغير!

— إنني أمتنك إعجابي عن طيبة خاطر. لكن من هو هذا الشاب الراقد بالقرب

منك؟

فأجابه الأمير ربنين أنه الملازم سوختلن. نظر إليه نابليون وقال وهو يبتسم: لقد جاء يحتكُّ بنا وهو ما زال فتى يافعاً!

فأجاب سوختلن بصوت متهدج: إنَّ صِغَرَ السن لا يمنع المرء أن يكون شجاعاً.

— جواب بديع أيها الشاب، سوف تبلغ مرتبة سامية!

كان الأمير أندريه قد وُضع في الصف الأول من الجرحى ليُكمل اللوحة التي شاء الضباط الفرنسيون رسمها لإمبراطورهم، ووقعت أنظار الإمبراطور عليه بالطبع، واجتذبت هيأته انتباهه، تذكَّر أنه رآه من قبل في ساحة المعركة، فسأله وهو يناديه بعبارة «أيها الشاب» التي احتفظ بذكره في مخيلته مقروناً بها: وأنت أيها الشاب؟ كيف تشعر الآن أيها الباسل؟

ظلت عينا الأمير أندريه، الذي استطاع منذ حين أن يوجه بضع كلمات إلى الجنود المرافقين، شاخصين إلى وجه الإمبراطور، وقد غرق في الذهول والسكون. شعر بأن الأهداف التي تشغل بال نابليون تافهة حقيرة، وأحسَّ بأن بطله بالذات شديد الضالة في

حمى انتصاره الحقيقى، إذا قيس إلى جلال السماء وعظمتها؛ تلك السماء الحافلة بالعدالة والخير، والتي اكتشفت حقيقتها في اللحظة الأخيرة؛ لذلك فإنه لم يجد عبارة يحسن به أن يوجهها إليه.

كان كل شيء يبدو لناظره فانيًا حقيرًا إذا قورن بالأفكار القائمة الصارمة السامية التي خلفها في نفسه نزيه الدماء من جسده، والألم الحاد الذي أحس به، وانتظار الموت البطيء الذي تعرّض له. ظلت نظرته غارقة في أعماق عيني نابليون، يفكر في غرور العظمة وبطلانها، وفي تفاهة الحياة الزائلة الفانية، التي لا يمكن لأحد أن يدرك معناها ومرمائها، وبطلان الموت نفسه الذي كان مدلوله مغلقًا أبدًا على مفاهيم الأحياء.

ولما لم يتلق الإمبراطور جوابًا من الأمير أندريه، استدار نحو رجاله وقال لهم أمرًا: أريد أن يُعنى بهؤلاء السادة وأن يُنقلوا إلى مركزي، اطلبوا إليّ طبيبي لأرى أن يفحص جراحهم.

وهمز جواده بساقيه معًا، واندفع ووجهه مشرق بالسعادة والرضى.

لما شاهد جنود النقلات مدى عناية الإمبراطور بالجرحى، هرع الذي سلب الأمير أندريه الصورة المقدسة الذهبية يعيدها إليه، ولم ير الأمير أندريه ذلك الذي أعادها إليه، كما لم يشعر كيف وقع ذلك، لكنه فجأةً شاهد الصورة فوق ثوبه العسكري ملقاة على صدره، ورأى سلسلتها الذهبية التي أحاطت أخته ماري عنقه بها بخشوع ورهبة وانفعال.

تساءل أندريه وهو يتأمل الصورة: «لماذا لا يبدو كل شيء نيرًا واضحًا بسيطًا كما تؤمن به ماري؟ يا له من عزاء إذا عرف المرء أين نجد العون في هذه الحياة، وأدرك ما ينتظره فيما وراء القبر! يا للسرور! ويا للهدوء الذي سأحس به لو استطعت القول: مولاي، رحمة بي! ولكن لمن أتقدم بهذا الابتهال؟ ألتك القوة غير المحدودة، غير الملموسة، التي لا أستطيع توجيه الكلام إليها، ولا أقدر على التعبير عن أفكارى بكلمات في وصفها؟ وهل هي العدم أو كل شيء؟ أم ترى لهذا الله الذي أراه هنا مؤطرًا في هذه الصورة التي صنعتها يد ماري؟ لا يوجد شيء ثابت، إلا إذا اعتبرنا أن ما أعرفه ضئيل وأن ما أجهله جليل كبير عظيم، وهذا الجزء الهائل غير مفهوم مني، ولكنه مع ذلك عظيم الأهمية.»

عاد حاملو النقلات إلى سيرهم، كان بولكونسكي يشعر بالآلم هائلة إثر كل رجة أو صدمة، ازدادت وطأة الحمى عليه وأخذ يهذي، كان خياله الملتهب بالحمى حافلاً بشتى الذكريات، كانت صورة أبيه وزوجه وأخته، وذكرى تحنانه تلك الليلة الفائتة، ووجه

نابليون الصغير الضئيل المتناهي في الصفار، ومشهد السماء اللامتناهية الصافية؛ كل هذه المرئيات كانت تدوّي، وتصطخب في رأسه وتفكيره.

كان يرى نفسه في ليسيا جوري، يعيش حياته بهدوء وسكون، لكنه ما يكاد ينعم بتلك الحياة البيئية الهائلة حتى ينتصب وجه نابليون، ذو النظرة القاسية الباردة، وعلى سيمائه أمارات الاغتراب لتعاسة الآخرين، فيعيده إلى مهاوي الشك والريب والألم، وعندئذٍ يلقي نظرة إلى السماء — السماء الصافية — فتلهمه السلوان، وحوالي صباح اليوم التالي، كانت هذه الأحلام لا تزال تعتلج وتتزاحم في خياله المحموم، حتى إنَّ الطبيب لاري أكد أنَّ الظلمات الفكرية التي غرق فيها بولكونسكي والانحلال الكلي في قواه، لا تُبرئه الحياة، كما يشفيه الموت نفسه!

أكد الطبيب قائلًا: إنه شخص عصبي سوداوي، لن ينجو من الموت. وهكذا ترك بولكونسكي لعناية سكان المنطقة أسوأً بجرى آخرين رُوي أن شفاهم لا أمل فيه.

